مصارع الأعيان

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

الأستاذ كامل كيلاني

الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩

عنيت بنشره مجلة الاخاء

لصاحبها

سليم قبعين



مطبعة الشرق بشارع كلوت بك لصاحبها اسكندر زرقه



مصارع الأعيان

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

الأستاذ كامل كيلاني

الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩

عنيت بنشره مجلة الاخاء

لصاحبها

سليم قبعين



مطبعة الشمس بشارع كلوت بك لصاحبها زكي رزق الله

كلمة ناشر الكتاب

عني المستشرقون والمستعربون الغربيون بجمع شتات اللغة العربية وأوابدها وتاريخها الحافل فلم يدعوا شاردة ولا واردة الا زفوها بثوب قشيب نسجت خيوطه من الابحاث الدقيقة والتنقيب المتواصل . ووجهوا التفاتهم الى اقطاب العلم عندنا وذكروا سير حياتهم واقوالهم وما فيها من عبر وعظات بالغة .

وقد رأت الامم التي تبوأت أريكة العلم ان من دواعي فخرها ومجدها وسؤددها احياء ذكرى رجالها الغابرين الذين مثلوا أدواراً هامة في الحياة الاجتماعية — على اختلاف منازعها ومراميها — فوضعوا كتباً قيمة سردوا فيها سير اولئك الامجاد الذين تركوا لهم أسمى ذكر في التاريخ .

وكان الاولى بنا نحن سلالة ابناء يعرب وقحطان أن ننسج على هذا المنوال ونجمع سير رجالنا العظام وأقوالهم الحكيمة ونزفها لابناء هذا العصر ليعتبروا بعبرها ويقفوا على ما كان عليه اسلافهم من المجد والعلم والبطولة . وقد رأينا أن نسد هذا الفراغ فطلبنا الى حضرة الكاتب اللوذعي الاستاذ كامل افندي كيلاني المتخصص بالأدب العربي أن يجمع لنا طائفة طيبة من تاريخ أعيان العرب ومصارعهم .

***

ومن عرف كامل افندي كيلاني وطالع كتبه المختلفة : كالأدب الاندلسي ورسالة الغفران ومصارع الخلفاء وديوان ابن الرومي ومختار القصص وقصص للاطفال وغيرها ، يثق بأن مجموعته ستكون انفس مجموعة من نوعها من حيث الدقة وحسن الاسلوب وروعة البيان .

ولعلنا نقوم بذلك ببعض الواجب المطلوب منا للأدب العربي وللشرق والشرقيين وهذا حسبنا وكفى .

سليم قبعين

(صاحب مجلة الاخاء)

المقدمة

(١)

قلت في كتاب مصارع الخلفاء :

« ليس أروع للنفس من تمثل مصارع الناس ، والاستماع اليهم في ساعاتهم الأخيرة وتعرف ما قالوه — وقت حلول الأجل — وآخر ما تفوهوا به من الكلم قبل أن يفارقوا هذا العالم — خيره وشره — فراقاً أبديا لا عودة لهم بعده .

واذا كان هذا هو شعورنا بجلال الموت وروعته ، فلا جرم أنه يعظم ويزداد — الى أقصى حد — حين يقترن بعظمة الملك وأبهته .

وليس أشجى للنفس من تمثل مصرع خليفة أو قائد كبير أو شاعر عظيم من أولئك الذين تركوا في هـذا العالم أكبر أثر ، ونقشوا في تاريخه صفحات لا يمحوها الزمن .

ولعل خير ساعة يستعرض فيها المتأمل تاريخ حياة انسان هي ساعة احتضاره ، فانه ليرى — حينئذ — أمام كل صورة من صور الضعف صورة أخرى من صور القوة ، ويلمح بجانب تلك الصور المشجية الحزينة ما يقابلها من الصور الماضية البسامة المشرقة »

(٢)

وقد كانت هذه التأملات — هي الباعث الأول الذي حداني — كما قلت في تلك المقدمة — لاخراج كتاب « مصارع الخلفاء » أولاً وكتاب « مصارع الأعيان » الذي بين أيدي القراء الآن .

وقد حاولت جهدي — كما ذكرت — أن أدون فيهما طائفة من أروع المشاهد التي ذكرها لنا التاريخ ، كما حاولت أن أرسم في ذهن القارىء صوراً واضحة مشرقة بالحياة ، ولعلي وفقت - في هذه المحاولة - بعض التوفيق .

***

وقد سلكت في هذا الكتاب نهج سابقه متوخيا الايجاز الشديد في عرض

حوادثه وتعليلها ، فأنا أعرف زهد الكثيرين وعزوفهم عن قراءة التاريخ المطول . وأعلم ـ الى ذلك ـ أنني اذا أفلحت في تحبيب التاريخ الى نفوس بعض النافرين منه ، بنشر مثل هذه الصور الرائعة التي تركها لنا المؤرخون ، فقد أدركت غاية من أجل الغايات التي أسعى الى تحقيقها .

***

وقد لقي كتاب «مصارع الخلفاء» من عطف القراء واقبالهم ما فاق كل ما قدرته له ، وألح عليَّ الكثيرون ـ وفي مقدمتهم حضرة الصحفي القدير ناشر الكتاب الذي اشكر له حسن ظنه بأدبي ـ أن أسرع بانجاز هذا الكتاب ، وأنا أشكر لحضرات القراء اقبالهم وتشجيعهم كما أشكر لصديقي الأستاذ سليم قبعين ، عنايته باظهار هذا الكتاب في أحسن مظهر ، وحسن ظنه بصاحبه ، وأرجو ان لا تكون حالى معه كما يقول الحريري :

« لقد استسمنت ذا ورم ، ونفخت في غير ضرم »

ولا كما يقول المتنبي :

« أعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم »

***

على أنني بذلت جهد المقل ، ولم يثنني عن اظهار هذا الكتاب ضيق الوقت وازدحامه بما تنوء به صحتي المعتلة وبنيتي الضعيفة من الأعباء المرهقة ، متأسياً بقول الطغرائي :

« ولولا تكاليف العلى ، ومغارم
ثقال ، وأعقاب الأحاديث في غد
لأعطيت نفسي في التخلى مرادها
فذاك مرادي — مذ نشأت — ومقصدى »

كامل كيلاني

مصرع عبد الله بن الزبير (١)

« فجاءه حجر من حجارة
المنجنيق وهو يمشي فأصاب
قفاه فسقط »

« المؤرخون »

---

(١) الليلة الاخيرة

جمع القرشيين في الليلة التي قتل في صبيحتها فقال لهم :ـ

« ما ترون ؟ »

فقال رجل منهم :ـ

« والله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلا !

والله لئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت معك .

إنما هي احدى خصلتين :

إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك ، وإما أن تأذن لنا فنخرج ! »

فقال عبد الله :ـ

« قد كنت عاهدت الله ألا يبايعني أحد فأقيله بيعته » .

فقال رجل آخر :ـ

« اكتب الى عبد الملك » .

فأجابه :ـ

كنت أكتب اليه : « من عبد الله أمير المؤمنين »

فوالله لا يقبل هذا مني أبدا .

---

(١) قتل في ١٧ جمادي الاولى سنة ٧٣ هـ .

أو أكتب اليه : « لعبد الله أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟ »
فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب الي من ذلك ! »

(٢) حواره مع أخيه

فقال « عروة » أخوه :ــ
« يا أمير المؤمنين ، قد جعل الله لك أسوة » .
فقال له :ــ
« من هو أسوتي ؟ »
قال :
« الحسن بن علي بن أبي طالب ، خلع نفسه وبايع معاوية »
قالوا :
فرفع عبد الله بن الزبير رجله وضرب « عروة » حتى ألقاه ، ثم قال : ــ
« يا عروة ، قلبي إذن مثل قلبك ؟
والله لو قبلت ما تقولون ما عشت إلا قليلاً وقد أخذتُ الدنية
وما ضربةٌ بسيف إلا مثل ضربة بسوط !
لا أقبل شيئاً مما تقولون »

(٣) في اليوم الأخير

فلما أصبح ، دخل على بعض نسائه فقال :ــ
« اصنعي لي طعاما »
فصنعت له كبداً وسناما .
فأخذ منها لقمة فلاكها ساعة ثم لم يسغها ، فرماها .
وقال :ــ
« اسقوني لبناً »
فأتي بلبن فشرب ، ثم قال : ــ
« صبراً ، عليّ غسلا »

فاغتسل ، ثم تحنط وتطيب .

ثم تقلد سيفه وخرج وهو يقول :ـ

« ولا ألين لغير الحق أسأله حتى يلين لضرس الماضغ الحجر »

(٤) حواره مع أمه

ثم دخل على أمه « أسماء » بنت « أبي بكر الصديق » — وهي عمياء من الكبر قد بلغت من السن مائة سنة —

قالوا :

فدخل عليها وسلم ، فقالت :

« من هذا ؟ »

فقال — : « عبد الله » .

ثم قال : —

« ما ترين ؟ قد خذلني الناس ، وخذلني أهل بيتي ! »

فقالت : —

« يا بني ، لا يلعبن بك صبيان بني أمية ، عش كريماً ومت كريماً ! »

فقال لها : —

« إن الحجاج قد أمنني »

قالت : —

يا بنيّ ، لا ترض الدنية فان الموت لا بد منه » .

قال : —

إني أخاف أن يمثّل بي !

قالت : —

« إن الكبش — اذا ذبح — لا يؤلمه السلخ ! »

(٥) ساعة المصرع

قالوا : —

فخرج ، فأسند ظهره الى الـكعبة — ومعه نفر يسير — فجعل يقاتل بهم أهل الشام ، فهزمهم وهو يقول : —

« ويل امه فتح لو كان له رجال »

فجعل « الحجاج » يناديه : —

قد كان لك رجال ، ولـكن ضيعتهم »

قالوا :

فجاءه حجر من حجارة المنجنيق — وهو يمشي — فأصاب قفاه فسقط »

فما درى أهل الشام أنه هو حتى سمعوا جارية تبكي وتقول :

« وا أمير المؤمنين ! »

فاحتزوا رأسه ، فجاءوا به الى الحجاج ، فبعث به الى عبد الملك .



الأسباب التي أدت إلى مصرعه

« إن فيه لثلاث خصال ، لا يسود بها أبداً
(١) عجب قد ملأه
(٢) واستغناء برأيه
(٣) وبخل التزمه
فلا يسود بها أبداً »

« عبد الملك بن مروان »

لا نستطيع أن نصف أسباب انكسار ابن الزبير وقتله بأكثر من هذه الخلال التي لا ينال صاحبها نجاحاً . فقد أفقدته هذه الصفات كل أنصاره وأضاعت منه فرصاً ثمينة ، لو انتهزها لعرف كيف يثبت ملكه ويوطد أسس خلافته .

فقد لاحت لعبد الله بن الزبير فرصة لا تعوض، وهي موت خصمه الألدود «يزيد» وبدأت الأمور تضطرب حين تنازل خلفه معاوية عن الخلافة بعد أن لبث فيها أياماً .

وكاد يتم الأمر لعبد الله بن الزبير ـ رغم مناوأة مروان الذي نازعه الأمر ـ وكانت كفة ابن الزبير في البداية راجحة فقد بايعه أهل البصرة وأهل مصر واجتمعت له العراق والحجاز واليمن وبايع له بعضهم في الشام سراً . ثم أصبح الناس في الشام فرقتين .

اليمانية مع مروان

والقيسية مع دعاة ابن الزبير

وتهاون ابن الزبير في الأمر واستنام لأعدائه فانتصر الفريق الاول ـ بعد قتال ـ ودخل مروان دمشق دخول الظافر .

ولما مات مروان لاحت لعبد الله بن الزبير فرصة أخرى ، فلم ينتهزها وأضاعها بتوانيه وبخله .

ولقد صدق الحجاج في قولته المشهورة : —

« قد كان لك رجال ولكنك ضيعتهم »

وصدق عبد الملك بن مروان في قولته التي صدرنا بها هذا الفصل ، حين هدده مصعب بن الزبير بأخيه عبد الله فأجابه عبد الملك بهذه الجملة التي تلخص لنا أخلاق عبد الله بن الزبير ، وتشرح لنا — بأوجز عبارة — السر في انهزامه وانفضاض الناس من حوله وانتصار خليفة أموي عليه — رغم كره جمهرة الناس ومقتهم الأمويين — لاعتقادهم أنهم أخذوا الخلافة اغتصاباً ، وقتلوا الحسين بن علي كما جنوا على أبيه وأوقدوا نيران الفتن التي أودت بكثير من أجل المسلمين وكبار رجالهم المعدودين.

ولقد قال عبد الملك — وهو على فراش الموت — :

« ما أعلم أحداً أقوى على الخلافه مني ، إن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، لكنه لبخله لا يصلح للسياسية »

***

والحق أن الفرق بين عبد الملك وبين ابن الزبير عظيم جداً ، نوجزه في أن عبد الملك أقام ملكا ثابتا على أنقاض مهدمة وفي وسط فتن وقلاقل حينما هدم ابن الزبير ملكا وطيداً بتهاونه واضاعة الفرص الثمينة التي مرت به . كان عبد الملك لا يتعفف عن كبيرة في سبيل توطيد ملكه وكان خصمه عبد الله بن الزبير يتحرج من كل ما يظن فيه أية مخالفة .

ألا ترى الى عبد الملك يظهر لعمرو بن سعيد أنه يرضى بالصلح معه على أن يعهد اليه بالخلافة من بعده فيفرح ابن سعيد بذلك ويقبل الصلح، ثم يخدعه عبد الملك فيقتله غدراً (١)

---

(١) **مصرع عمرو بن سعيد**

قالوا : إن عبد الملك حينما تحفز لقتال ابن الزبير ، وخرج من دمشق أغلق عمرو بن سعيد بابها فقيل لعبد الملك :

ثم يلقي برأسه الى شيعته وصحبه ومعها دنانير ودراهم ليشغلهم بها، ويمنيهم بالوعود

« ما تصنع ؟

أتذهب إلى أهل العراق وتدع دمشق ؟

أهل الشام أشد عليك من أهل العراق . »

قالوا :

فأقام مكانه لحاصر أهل دمشق أشهراً حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ، ففتح دمشق .

ثم أرسل عبد الملك الى عمرو ـ وكان بيت المال في يد عمرو ـ «أن أخرج للحرس أرزاقهم »

فقال عمرو :ـــ

«ان كان لك حرس فان لنا حرساً . »

فقال عبد الملك :ـ

« أخرج لحرسك أرزاقهم أيضاً »

قالوا :

وفي احدى الليالى أرسل عبد الملك اليه ـ في نصف الليل ـ فلما أراد الذهاب اليه قالت له امرأته :ـ

« لا تذهب اليه فاني أتخوفه عليك وإني لأجد ريح دم مسفوح »

ولم تزل تلح عليه حتى سئم الحاحها ، ثم ضربها بقائم سيفه فشجها ، فتركته .

وأخرج معه أربعة آلاف رجل من أهل دولته ـ لا يقدر على مثلهم ـ متسلحين ، فأحدقوا بخضراء دمشق ـ وفيها عبد الملك بن مروان ـ فقالوا لعمرو :ـ

« اذا دخلت على عبد الملك ، ورابك منه شيء ، فأسمعنا صوتك »

فقال لهم :ـ

« إن خفي عليكم صوتي ولم تسمعوه فالزوال بيني وبينكم ميعاد . ان زالت الشمس ولم أخرج اليكم فاعلموا أني مقتول أو مغلوب فضعوا أسيافكم ورماحكم

الخلابة فينسيهم بهذه الرشا ثأر صاحبهم ؟

حيث شئتم ، ولا تغمدوا سيفاً حتى تأخذوا بثأري من عدوي . ثم دخل ، وجعلوا يصيحون :ـ

« يا أبا أمية : أسمعنا صوتك »

وكان معه غلام أسحم شجاع فقال له :ـ

« اذهب للناس فقل لهم: ليس عليهم من باس »

وإنما اراد بذلك أن يسمع عبد الملك أن وراءه ناساً .

فقال له عبد الملك :ـ

« أتمكر يا أبا أمية عند الموت ؟ خذوه ! »

ثم نشروه الى الارض نشرة فكسرت ثنيته .

فجعل عبد الملك ينظر اليه

فقال عمرو :ـ

« لا عليك يا أمير المؤمنين عظم انكسر »

فقال عبد الملك لأخيه عبد العزيز — :

« اقتله حتى ارجع اليك »

فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه قال له عمرو :ـ

« تمسك بالرحم ياعبد العزيز . أنت تقتلني من بينهم ؟ »

فتركه ، فجاء عبد الملك فرآه جالساً ، فقال له :ـ

« لمَ لم تقتله لعنه الله ولعن أماً ولدته »

فقال له — :

« إنه تمسك بالرحم فتركته »

فأمر جلاداً عنده فضرب عنقه .

ثم أدرجه في بساط ثم أدخله تحت السرير .

***

فدخل عليه «قبيصة بن ذؤيب الخزاعي» وكان أحد الفقهاء وكان رضيع عبد الملك وصاحب خاتمه ومشورته ـ فقال عبد الملك :

« كيف رأيك في عمرو بن سعيد »

فأبصر « قبيصة » رجل عمرو تحت السرير فقال : ـ

«اضرب عنقه يا أمير المؤمنين »

فقال عبد الملك : ـ

« جزاك الله خيراً فما علمتك الا ناصحاً إلينا موفقا » ثم قال له ـ :

« فما ترى في هؤلاء الذين أحدقوا بنا وأحاطوا بقصرنا ! »

قال قبيصة : ـ

«اطرح رأسه اليهم يا أمير المؤمنين، ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلون بها»

فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح اليهم من أعلى القصر .

فطرحت اليهم ، وطرحت الدنانير ونثرت الدراهم ، ثم هتف عليهم الهاتف ينادي :

« إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه أن يحمل راجلكم ويكسو عاريكم ويغني فقيركم ويبلغكم الى أكمل ما يكون من العطاء والرزق ، ويبلغكم الى المائتين في الديوان »

فصاحوا به :

« نعم نعم ، سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين »

***

وهكذا غدر عبد الملك بن مروان بعدوه — بعد أن عاهده على الصلح — ولم يبال بميثاقه وعهده .

إغداقاً في سبيل تحقيق مآربه ، ويبذل الوعود الكاذبة والأماني المعسولة ليظفر بغايته ، غير متورع عن كذب ولا مداهنة ، مستهيناً بكل وسيلة — مهما كانت مرذولة — في سبيل ادراك أوطاره . وكان عبدالله بن الزبير كأخيه «مصعب ابن الزبير» (١) بخيلا ، لا يستميل الجنود بمال ، ولا يغريهم بوعد كاذب .

كان عبد الملك ـ كمعاوية ـ يعتقد ضعف مركزه الشرعي فلا يترك وسيلة لتثبيته وتوثيق أساسه

وكان عبد الله بن الزبير ـ كعلي بن ابي طالب ـ يعتقد أنه على حق فلا يعنى بالحيل السياسية ، واهماً أن الحق منتصر وحده ، دون أن يفتقر الى مداورة أو خداع .

لقد كان عبدالملك يقتدي بمعاوية في بذل المال واستخدامه في قضاء أغراضه ، لتيقنه من سحره العجيب في تذليل العقبات ، وتسهيل الصعاب .

وكثيراً ما اقتدى بعبد الملك عماله في استخدام المال في تذليل المستحيلات .

***

ألا ترى الى الحجاج — وهو يحاصر الكعبة ، وفيها عبد الله بن الزبير ـ فيأمر رجاله أن يرموها بالمنجنيق ، فيحجمون ، فاذا رأى ترددهم ، جاء بكرسي وجلس عليه وقال :

---

(١) كذلك كان أخوه مصعب بن الزبير بخيلا على الجند ، وإن كان مصعب مبذراً في شئونه الخاصة مسرفا على نفسه وأهله

فقد روى المؤرخون أنه أنفق ألف ألف درهم في زواج سكينة بنت الحسين والعجيب أنه أنفق هذا المال كله في الوقت الذي كان جنوده يطلبون منه المال فلا يعطيهم .

وقد كتب أحد الشعراء الى عبدالله بن الزبير يقول :

بلغ أمير المؤمنين رسالة ... من ناصح لك لا يريد خداعا

بُضْعُ الفتاة بألف ألف كامل ... وتبيت سادات الجنود جياعا

« يا أهل الشام ، قاتلوا على أعطيات عبد الملك »

فلا يكادون يسمعون منه ذلك حتى يسرعوا الى تلبية أمره إسراعا .

***

لقد أغفل عبد الله استخدام المال — كما أسلفنا — وا كتفى بأن يعلم أنه محبوب من الناس ، وأن أعداءه الأمويين مبغضون اليهم ، وأنه في جانب الحق والأمويون في جانب الباطل .

ونسي أن الباطل إذا تعهده المبطل وقوى دعائمه وثبت أركانه تغلب — ولو إلى حين — على الحق الذي أهمله صاحبه واستهان بنصرته ولم يعن بتدعيمه

ومن رعى غنما في أرض مأسدة ونام عنها ، تولى رعيها الأسد

***

لقد كان عبد الله بن الزبير شجاعا مقداما لايهاب الموت ، ولكن ماذا تجديه الشجاعة أمام الدهاء السياسي والحيل العجيبة التي كان يلجأ اليها اعداؤه ؟

والرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول ، وهي المحل الثاني

حصار مكة

حاصرت جنود يزيد مكة وقذفت الكعبة بالحجارة والصخور ثم أحرقتها وحطمت الحجر الاسود ، ومات يزيد فاضطر جنوده — بقيادة الحصين — الى الرجوع الى بلادهم مدة من الزمن ، حتى إذا انقضت الفوضى وقمعت الاضطرابات وأخضع عبد الملك البلاد إخضاعا وجه الحجاج الى مكة لمحاصرة عبدالله بن الزبير ففعل قال العلامة دوزي :—

« ذهب الحجاج الى تلك البقاع المقدسة وحاصر المدينة [1] وطفق يرمي الكعبة بالصخور والحجارة ليدكها دكا .

وبينما كان يقذفها بالنار — ذات يوم — هبت عاصفة شديدة فأحرقت النار اثني عشر جندياً »

قال :

« فرأى الجيش في ذلك عقاباً من الله على انتهاك حرمة ذلك المكان المقدس فأحجم رجال الحجاج وكفوا عن ذلك .

وثمة اغتاظ الحجاج وخلع بعض ملابسه وتقدم من المنجنيق فأخذ بيده حجراً ووضعه فيه ثم أطلقه بعد ذلك وهو يقول :

« لقد أخطأتم الفهم ، فليس معنى ما حدث هو ما دار باخلادكم .

---

(١) قالوا :

« وكان السبب في توجيه الحجاج إلى ابن الزبير دون غيره — فيما ذكر — أن عبد الملك لما أراد الرجوع الى الشام قام اليه الحجاج بن يوسف فقال :—

« يا أمير المؤمنين اني رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته ، فابعثني اليه وولني قتاله »

فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام ، فسار حتى قدم مكة .

وقد كتب اليهم عبد الملك بالأمان ليدخلوا في طاعته .

ألا إنني جد خبير بطبيعة هذه البلاد التي نشأت فيها وربيت ، ولكم رأيت لهذه العاصفة من أشباه ! »

قال : —

« وظل يشدد الحصار عليها عدة أشهر حتى فتحها بعد أن قتل عبدالله بن الزبير سنة ٩٣٢ م . »

***

وحسب القارىء أن يعرف أن خصم عبدالله بن الزبير هو الحجاج ليدرك حرج الموقف وصعوبته ، ونحسبنا في غير حاجة الى وصف الحجاج . بعد أن وصفه الفرزدق بقوله : —

« ومن يأمن الحجاج — والجنّ تتقي عقوبته — إلا ضعيف عزائمه »

وقد رأى القارىء كيف أغرى الحجاج جنوده بالمال وأطمعهم في أعطيات عبد الملك ليشجعهم على اقتحام هذه البقاع المقدسة ودكها دكا .

وقد انتهت المعركة الفاصلة بهلاك عبد الله بن الزبير وانتصار الأمويين عليه كما رأيت .



مصرع مصعب بن الزبير

« فجاء غلام فضربه بالسيف فقتله »

قالوا : —

« إن عبد الملك لما أيس من مصعب كتب الى أناس من رؤساء أهل العراق يدعوهم الى نفسه ويجعل لهم أموالا عامة وشروطاً وعهوداً ومواثيق وعقوداً »

قالوا :

وكتب إلى « ابراهيم بن الأشتر » يجعل له وحده مثل جميع ما جعل لأصحابه على أن يخلعوا عبدالله بن الزبير اذا التقوا .

فقال ابراهيم بن الأشتر لمصعب :

« إن عبد الملك قد كتب اليّ هذا الكتاب وكتب لأصحابي كلهم « فلان » و « فلان » بذلك .

فادع بهم — في هذه الساعة — فاضرب أعناقهم واضرب عنقي معهم »

فقال مصعب :—

« ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لي ذلك من أمرهم »

قال إبراهيم :—

« فأخرى »

قال :—

« وما هي ؟ »

قال :—

« احبسهم في السجن حتى يتبين لك ذلك »

فأبى . فقال له إبراهيم بن الأشتر :

« عليك السلام ورحمة الله وبركاته ولا تراني ـ والله ـ بعد في مجلسك هذا أبدا »

وقد كان قال له — قبل ذلك — :

« دعني أدعو أهل الكوفة بدعوة لا يخلعونها أبدا . وهي ما شرطه الله »

فقال له مصعب : « لا والله لا أفعل »

« لا أكون قتلتهم بالأمس وأستنصر بهم اليوم »

قال : « فما هو إلا أن التقوا . فحولوا برءوسهم ومالوا الى عبد الملك بن مروان فبقي مصعب في شرذمة قليلة »

فجاءه « عبدالله بن ظبيان » فقال :

« أين الناس أيها الامير ؟ »

فقال « غدركم يا أهل العراق ! »

قال :فرفع « عبدالله » سيفه ليضربه .

فبدره « مصعب » بالسيف على البيضة . فنشب فيها .

فجعل يقلب السيف ولا ينتزع من البيضة .

قال : فجاءه غلام « لعبيد الله بن ظبيان » فضرب مصعباً بالسيف فقتله .

ثم جاء « عبيد الله » برأسه الى عبد الملك يدّعي أنه قتله

قالوا : فطرح رأسه وقال — :

« نطيع ملوك الارض ما قسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم »

ثم وقع عبد الملك ساجداً (١)

---

(١) وقد ذكروا أن « عبيد الله بن ظبيان » هذا همّ بقتل عبد الملك » أيضاً — وهو ساجد — قالوا :

فتحامل « عبيد الله » على ركابه ليضرب عبد الملك بالسيف ، فرفع « عبد الملك » رأسه وقال — :

« والله يا عبيد الله لولا مَتنتك لألحقتك به سريعاً . »

قال — : « فبايعه الناس . ودخل الكوفة فبايعه أهلها »

الأسباب التي أدت إلى مصرعه

لعل القارىء يستغني بتلك القطعة السابقة عن شرح الأسباب التي أدت الى هلاك مصعب بن الزبير ، فهي في اعتقادنا كافية لشرح أخلاقه وإظهار سر هزيمته. فأنت ترى عبد الملك لا يتعفف عن بذل المال وإغداقه على جنود أعدائه ليستميلهم به وقد رأيت أن مصعباً كان بخيلا على الجند — وإن كان مسرفاً على نفسه — حتى قال فيه القائل — :

بُضع الفتاة بألف ألف كامل   وتبيت سادات الجنود جياعا

وأنت ترى مصعباً لا يأخذ الامور بالحزم وقوة الشكيمة ولا يتلافى الشر من أوله فهو يتعرف من صديقه سر المؤامرة التي دبرها له اعداؤه ثم يأبى أن يعد لها ما هو جدير باعداده من وسائل وقوى .

ويطلب اليه صديقه أن يستنجد بأهل الكوفة — وهو في مثل هذا المأزق الحرج — فلا يقبل له قولا

وإذا كانت هذه حاله وهو يجابه أشد ساعات حياته هولا وضيقاً . فكيف به في أيام رخائه وسلمه ؟

وإذا كان غيره يأخذون الأبرياء بالظنة ، أفما كان جديراً أن يفحص هذه التهمة ويتعرف صدقها من كذبها على الأقل ؟

ولكنه لم يفعل . بل فرط وتهاون فلقي جزاء تهاونه وتفريطه .

***

وقد قلنا في الفصل السابق إن الفرق بين السياستين عظيم جداً وإن سياسة عبد الملك وأضرابه مبنية على الدهاء والايقاع وبذل الرشا والمال حينما نرى سياسة مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله بن الزبير قائمة على الاعتقاد بحقهم الشرعي في الخلافة وحب الناس إياهم . ولكن ماذا ينفعهم اقبال الناس عليهم ما داموا لا يستزيدونهم منه ولا يعرفون كيف يستثمرونه ويتعهدونه

لقد كان عبد الملك — كما كان معاوية — يجعل أمامه هدفاً لا يحول عنه ،

وهو أن يقرّ الناس بيعته ، فاذا رأى زعيما من زعمائهم تخلف وعصي أغراه بكل وسيلة من وسائل المال والأماني الخداعة، فاذا خدعه أدرك بغيته منه ، والا لجأ الى إغراء أنصار هذا الزعيم بالمال وبذل لهم من الوعود والمغريات مثل ما بذل لصاحبهم من قبل .

ألا ترى الى عبد الملك يكتب الى « عبد الله بن خازم السلمي » يدعوه الى بيعته ويطمعه في خراسان سبع سنين (١)

فاذا رأى اصرار عبدالله على الوفاء لخصومه ، كتب الى خليفة «ابن خازم(٢)»

---

(١) قالوا :

كتب عبد الملك بن مروان الى « ابن خازم » مع « سورة بن أشيم » : —

« ان لك خراسان سبع سنين على أن تبايع لي »

فقال ابن خازم : —

« لولا أن اضرب بين بني سليم وبني عامر لقتلك »

مصرع ابن خازم (٢)

قالوا : —

واعتور عليه بحير بن ورقاء وعمار بن عبدالعزيز الجشمي ووكيع فطعنوه فصرعوه فقعد وكيع على صدره فقتله .

فقال بعض الولاة لوكيع : « كيف قتلت ابن خازم ؟ »

قال : غلبته بفضل القنا فلما صرع قعدت على صدره فحاول القيام فلم يقدر عليه وقلت : «يالثارات دويلة — « وكان دويلة أخا لوكيع » — قال : —

فتنخم في وجهي، وقال : —

« لعنك الله ! تقتل كبش مضر بأخيك وهو علج لايساوي كفا من تراب ؟ »

قال وكيع :

« فما رأيت أحداً أكثر ريقاً منه ـ على تلك الحال عند الموت »

على « مرو » وهو « بكير بن وشاح » يغريه بمثل ما أغرى به ابن خازم من قبل ، ليخلع عبدالله بن الزبير ،

قالوا : —

وكتب عبد الملك الى « بكير بن وشاح » وكان خليفة بن خازم على (مرو) بعهده على خراسان ووعده ومنّاه .

فخلع بكير بن وشاح عبد الله بن الزبير ، ودعا الى عبد الملك بن مروان ، فأجابه أهل مرو

* * *

فخشى ابن خازم عاقبة الأمر فأراد الالتجاء الى ابنه بالترمذ ولكن اعداءه قتلوه قبل أن يصل اليها



مصرع الحسين

«فحمل عليه الناس من كل جانب ، فضُربت كفه اليسرى وضرب على عاتقه ، فصار ينوء ويكبو ، ثم طعنه أحدهم بالرمح فوقع ، ثم احتزوا رأسه وقتل وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ثم داسوه بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره[1] »

(المؤرخون)

مقدمات المصرع

كتاب أهل الكوفة اليه

« أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد[2] الذي اعتدى على هذه الأمة فانتزعها حقوقها واغتصبها أمورها وغلبها على فيئها وتأمّر — على غير رضى منها — ثم قتل خيارها واستبقى شرارها ، فبعداً له كما بعدت ثمود .

إنه ليس لنا امام فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى

---

(١) قتل الحسين — رحمة الله عليه — في ١٠ محرم سنة ٦١ هـ .وقتل من أصحابه معه اثنان وسبعون رجلا

(٢) يعنون معاوية

فان « النعمان بن بشير » في قصر الامارة ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه الى عيد

ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام »

الحسين في طريقه الى المصرع

« إن قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية »

« الفرزدق »

(١) نصيحة العائذي[1]

« أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم يستمال ودهم وتستخلص نصيحتهم فهم إلب واحد عليك.

وأما سائر الناس بعد، فان أفئدتهم تهوى اليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك»

نصيحة الطرماح بن عديّ

قال له الطرّماح بن عديّ — :

« إني لأنظر فما أرى معك أحداً

ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكفى بهم !

وقد رأيت — قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم — ظَهر الكوفة وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم فقيل :

« اجتمعوا ليعرضوا، ثم يسرحوا الى الحسين »

فأنشدك الله إن قدرت أن لا تقدم عليهم شبرا إلا فعلت. فان أردت أن تنزل

---

(١) هو مجمّع بن عبدالله العائذي

بلدا يمنعك الله به حتى ترى من رأيك ويتبين لك ما أنت صانع فسر حتى أنزلك مناع جبلنا الذي يدعى « أجأ » امتنعنا به من ملوك غسان وحمير ومن النعمان ابن المنذر ومن الأسود والأحمر والله ان دخل علينا ذل قط .

فأسير معك حتى أنزلك القرية ، ثم نبعث الى الرجال من طيء ، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى يأتيك طيء رجالا وركبانا

ثم اقم فينا ما بدا لك فان هاجك هيج فأنا الزعيم لك بعشرين الف طائي يضربون بين يديك بأسيافهم والله لا يوصل اليك أبداً ومنهم عين تطرف . »

فقال له الحسين — :

« جزاك الله وقومك خيراً ، قد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر على الانصراف ولا ندري على ما تنصرف بنا وبهم الامور في عاقبه » .

فودعه الطرماح قائلا — : «دفع الله عنك شر الأنس والجن ، إني قد امترت لأهلي من الكوفة ميرة ومعي نفقة لهم فآتيهم فأصنع ذلك فيهم ، ثم اقبل إليك إن شاء الله فان الحقك فوالله لاكونن من انصارك[1]

---

(١) قال الطرماح — :

فقال لي الحسين — :

« فان كنت فاعلا فعجل رحمك الله »

قال :

« فعلمت أنه مستوحش إلى الرجال حتى يسألني التعجيل فلما بلغت أهلي وضعت عندهم ما يصلحهم وأوصيت فأخذ أهلي يقولون — :

« إنك لتصنع — مرتك هذه — شيئاً ما كنت تصنعه قبل اليوم »

فأخبرتهم بما أريد

قال : « وبينما أنا في طريقي اليه بلغني نعيه . »

مقابلة عبيدالله بن الحر

ويسير الحسين فيرى فسطاطا في طريقه فيسأل — :

« لمن هذه الفسطاط ؟ »

فيقال له — :

« هي لعبيدالله بن الحر الجعفي »

فيقول —:

« ادعوه اليّ »

فاذا جاءه الرسول قال له — :

« هذا الحسين بن علي يدعوك »

فيقول عبيدالله بن الحر —:

« إنا لله وإنا اليه راجعون ، والله ماخرجت من الكوفة إلا كراهة أن يدخلها الحسين وانا بها . والله ما أريد أن أراه ولا يراني »

فيعود الرسول الى الحسين يخبره بما سمعه منه (١)

---

(١) قالوا إن عبيدالله بن الحر قال للرسول — :

« أبلغ الحسين انه انما دعاني الى الخروج من الكوفة حين بلغني أنك تريدها فرارا من دمك ودماء أهل بيتك ، ولئلا اعين عليك ، وقلت —:

« إن قاتلته كان عليّ كبيرا وعند الله عظيما

وإن قاتلت معه — ولم اقتل بين يديه — كنت قد ضيعت قتله ، وأنا رجل أحمى أنفا من ان امكن عدوي فيقتلني ضيعة ، والحسين ليس له ناصر بالكوفة ، ولا شيعة يقاتل بهم »

فيقوم الحسين قاصدا إليه حتي يدخل عليه فيسلم ثم يجلس (١)

ويدعوه الحسين بعد ذلك الى الخروج معه لنصرته فيعيد عليه ابن الحر تلك المقالة

فيقول له الحسين —:

« فالا تنصرنا فاتق الله ان تكون ممن يقاتلنا »

فيقول —:

« أما هذا فلا يكون أبدا ان شاء الله »

فلا يجد الحسين أمامه الا الرجوع من حيث أتى

قالوا

« ثم قام الحسين من عنده حتى دخل رحله (٢) »

---

(١) صورة الحسين

قال عبيد الله بن الحر —:

« دخل عليّ الحسين — رضي الله عنه — ولحيته كأنها جناح غراب وعليه جبة خز وكساء وقلنسوة موردة

ولا رأيت أحداً قط أحسن ولا أملأ للعين من الحسين، ولا رققت على أحد قط رقتي عليه — حين رأيته يمشي والصبيان حوله »

قال ابن الحر —:

ثم خرج الحسين ، وأعدت النظر الى لحيته فقلت —:

« أسواد ما أرى أم خضاب ؟ »

قال —:

« يا ابن الحر ! عجل عليّ الشيب ! »

فعرفت أنه خضاب

(٢) وقد ندم ابن الحر — بعد ذلك — على توانيه في نصرة الحسين وبكى

مسلم

« يابني

إني خفقت برأسي خفقة ، فعن لي فارس

على فرس فقال : —

« القوم يسيرون والمنايا تسري اليهم »

فعلمت أنها أنفسنا نعيت الينا » «الحسين»

وهكذا لا يكاد يغادر الحسين « عبيد الله بن الحر » ويسير ساعة حتى يخفق برأسه خفقة ثم ينتبه — وهو يقول : —

« إنا لله وانا اليه راجعون والحمد لله رب العالمين ! »

عليه — حين بلغه نبأ مصرعه — وعاد الى الكوفة ثم دخل على « عبد الله بن زياد » فلما رآه قال له : —

« أين كنت ؟ »

قال : —

« كنت مريضاً ! »

قال : —

« مريض القلب ؟ أم مريض الجسد ؟ »

قال : —

« أما قلبي فلم يمرض قط ، وأما جسدي فقد منّ الله تعالى بالعافية »

قال : —

« قد أبطأت ، ولكنك كنت مع عدونا »

قال : —

ثم يفعل ذلك — فيما يقولون — مرتين او ثلاث . فيقبل اليه ابنه على ابن الحسين فيسأله عن سر هذا الوجد فيقص عليه هذا الحلم المروع فيقول له :—

يا أبت !

لا أراك الله سوءا ، ألسنا على الحق ؟ »

فيقول له — :

« بلى والذي إليه مرجع العباد »

« لو كنت مع عدوك لم يخف مكاني »

قال :— « أما معنا فلم تكن »

قال :— « لقد كان ذلك ! »

قالوا :— ثم استغفل ابن زياد — والناس عنده — فانسل منه ، ثم خرج فنزل المدائن وقال :—

لئن استطعت أن لا أرى له وجها لأفعلن »

وقد رثى الحسين واصحابه الذين قتلوا معه بقوله :—

يقول أمير غادر — حق غادر :— «ألا كنت قاتلت الحسين بن فاطمة»
ونفسي — على خذلانه واعتزاله وبيعة هذا الناكث العهد — لائمه
فواندمى أن لا أكون نصرته ألا كل نفس — لا تسدد — نادمه
وإني — لأني لم أكن من حماته لذو حسرة ، ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تأزروا على نصره سقيا من الغيث دائمه
وقفت على اجداثهم ومحالهم فكاد الحشا ينقض ، والعين ساجمه
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى سراعا الى الهيجا حماة ضيارمه
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم — بأسيافهم — آساد غيل ضراغمه
فان يقتلوا ، فكل نفس زكية على الارض قد اضحت لذلك واجمه

فيقول له —:

« يا أبت ! إذن لا نبالي — نموت محقين »

فيقول له — :

« جزاك الله من ولد خير ماجزى والدا عن ولده »

وما إن رأى الراءون أصبر منهم ... لدى الموت سادات وزهرا قماقمه
أتقتلهم ظلما ، وترجو ودادنا ؟ ... فدع خطة ليست لنا بملائمه

* * *

لعمري ، لقد راغمتمونا بقتلهم ... فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مرارا أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فكفوا ، وإلا زرتكم في كتائب ... أشد عليكم من زحوف الديالمه

وقوله :—

« يالك حسرة ما دمت حيا ... تردد بين حلقى والتراقي
حسينا حين يطلب بذل نصري ... على أهل العداوة والشقاق
ولو أني أواسيه بنفسى ... لنلت كرامة يوم التلاقي
مع ابن المصطفى نفسي فداه ... فيا لله من ألم الفراق
غداة يقول لي ـ بالقصر ـ قولا : ... « أتتركنا وتزمع بانطلاق ؟ »
فلو فلق التلهف قلب حي ... لهم اليوم قلبي بانفلاق
فقد فاز الالى نصروا حسينا ... وخاب الآخرون أولو النفاق

في اليوم التالي

قالوا :

« فلما أصبح الصباح ساروا حتى انتهوا الى « نينوى » فاذا راكب على نجيب وعليه السلاح متنكب قوساً مقبل من الكوفة »

قالوا :

« فوقفوا جميعاً ينتظرونه ، فلما انتهى اليهم سلم على « الحر بن يزيد » وأصحابه ولم يسلم على الحسين وأصحابه »

كتاب ابن زياد

ثم أعطى « الحر » كتاباً من عبيد الله بن زياد ، يقول له فيه :

« أما بعد ، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء »

وقد أمرت رسولي أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري والسلام»

في العراء

وقد أنفذ « الحر » وصية ابن زياد وأخذ الحسين ومن معه بالنزول في ذلك المكان — على غير ماء ولا في قرية — وعبثاً حاولوا أن يسمح لهم بالنزول في مكان آخر فقد أصرَّ على انفاذ أمر مولاه ولم يحد عنه قيد أنملة

قالوا له :

« دعنا ننزل في هذه القرية ـ يعنون نينوى ـ أوهذه القرية ـ يعنون الغاضرية أو هذه الأخرى ـ يعنون شفية »

ولكنه أبى أن يسمح لهم بذلك وقال :

« ما أستطيع ذلك !

هذا رجل قد بعث الينا عينا »

ومن العجيب أن هذا الرجل الذي يشتد في انفاذ أمر مولاه ابن زياد ، ويأبى إلا التضييق على الحسين — بكل ما أوتي من قوة — فلا يسمح له بالنزول في إحدى القرى القريبة ، ويظل محاصراً الحسين حتى يسلمه الى أعدائه .

نقول إن من أعجب العجب أن هذا الرجل سينقلب نصيراً للحسين — بعد فوات الوقت — وأن يُقتل بين يديه مجاهداً في سبيله ، بعد أن أوقعه في الفخ وضيّق عليه مسالك الارض الرحيبة . وكم يسخر القدر من الناس !

نصيحة

والتفت زهير بن القين الى الحسين فقال : —

« يا ابن رسول الله !

إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا بعدهم .

فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به »

فقال الحسين : —

« ما كنت لأبدأهم بالقتال »

فقال له زهير بن القين : —

« سر بنا الى هذه القرية حتى ننزلها فانها حصينة ، وهي على شاطىء الفرات ، فان منعونا قاتلناهم ، فقتالهم أهون علينا من قتال من يجيء بعدهم ! »

فلم يأخذ الحسين برأيه ورضخ لحكم الحرّ .

عمر بن سعد

وفي اليوم التالي قدم عليهم « عمر بن سعد بن أبي وقاص » من الكوفة في أربعة آلاف ، أوفدهم ابن زياد لقتال الحسين (١)

قالوا :

وبعث عمر بن سعد يسأل الحسين :ـ

« ماذا أتى به » فقال له :ـ

« كتب اليّ أهل مصركم هذا أن أقدم .

فأما إذ كرهوني فأنا أنصرف عنهم »

فقال عمر بن سعد :ـ

« أني لأرجو أن يعافيني الله من حربه وقتاله »

---

(١) قالوا : ولما طلب ابن زياد الى عمر بن سعد أن يذهب لقتال الحسين اعتذر عن ذلك ـ وقال له : « ان رأيت ـ رحمك الله ـ أن تعفيني فافعل »

فقال له عبيد الله بن زياد : « نعم ! على أن ترد لنا عهدنا ! »

فقال : « أمهلني اليوم حتى أنظر »

وانصرف عمر يستشير نصحاءه . قالوا : « فلم يكن يستشير أحداً إلا نهاه »

وجاء حمزة بن المغيرة بن شعبة ـ وهو ابن أخته ـ فقال له :

« أنشدك الله يا خال أن تسير الى الحسين فتأثم بربك وتقطع رحمك !

فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الارض كلها ـ لو كان لك ـ خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين ! »

فقال له : « أفعل ان شاء الله ! » وذهب يعتذر فلم يقبل منه ابن زياد اعتذاره.

قالوا : فلما رآه قد لج قال له : « فاني سائر الى الحسين »

رسالته الى بن زياد

قالوا :

وبعث عمر بن سعد الى ابن زياد يقول :

« أما بعد ، فاني حيث نزلت بالحسين بعثت اليه رسولي فسألته عما أقدمه وماذا يطلب ويسأل فقال : كتب اليّ أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم فسألوني القدوم ففعلت ، فأما اذ كرهوني فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم »

كتاب ابن زياد

قالوا : فلما قرىء الكتاب على ابن زياد قال :ـ

« الآن إذ علقت مخالبنا به   يرجو النجاة ولات حين مناص »

ثم كتب إلى عمر بن سعد :

«أما بعد ، فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت .

فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه .

فاذا فعل رأينا رأينا والسلام (١) . »

---

(١) وفي رواية أخرى أنه كتب اليه :ـ

« أما بعد .

فحل بين الحسين واصحابه وبين الماء ولا يذوقوا منه قطرة ، كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان »

فاذا صحت هذه الرواية كانت دليلا آخر على أن بني أمية وأعيانهم مازالوا يستعينون ـ حتى في زمن يزيد ـ بهذه الاكذوبة المفضوحة ـ دم عثمان ـ ليروجوا بها الدعاية لهم .

مسالمة الحسين

« دعوني فلأذهب في هذه الارض العريضة
حتى ننظر ما يصير أمر الناس » « الحسين »

ولقد طلب الحسين من عمر بن سعيد أن يخلي سبيله وأن يمكنه من الرجوع من حيث أتى [١] ، قالوا :

« والتقى الحسين وعمر بن سعد ثلاثاً أو أربعاً وتشاوروا في ذلك »

كتاب عمر بن سعد

قالوا : فكتب عمر بن سعد الى عبيد الله بن زياد :ــ

« أما بعد ،

فان الله قد أطفأ الثائرة وجمع الكلمة وأصلح أمر الامة .

هذا حسين قد أعطاني أن يرجع الى المكان الذي منه اتى او ان نسيره الى أي ثغر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلا من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو ان يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، وفي هذا لكم رضى وللأمة صلاح »

وقع الكتاب عند ابن زياد

قالوا : فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال:

---

(١) وفي بعض الروايات أنه قال : —

« اختاروا مني خصالاً ثلاثا

إما أن ارجع من المكان الذي أقبلت منه واما ان اضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيه واما أن تسيروني الى اي ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلا من اهله ، لي مالهم وعليّ ما عليهم »

« هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه !
نعم قد قبلت ! »

وسيط السوء

قالوا : فقام اليه شمر بن ذي الجوشن فقال :

اتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك إلى جنبك ؟ والله لئن رحل من بلدك — ولم يضع يده في يدك — ليكونن أولى الناس بالقوة والعز ، ولتكونن أولى الناس بالضعف والعجز ! فلا تعطه هذه المنزلة فانها من الوهن . ولكن لينزل على حكمك — هو وأصحابه — فان عاقبت فأنت أولى بالعقوبة وان غفرت كان ذلك لك .

والله لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل ! »

* * *

فقال له ابن زياد :—

« نعم ما رأيت ! الرأي رأيك ! »

قالوا : ثم دعاه فقال له :—

« اخرج بهذا الكتاب الى عمر بن سعد فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي فان فعلوا فليبعث بهم الي سلما .

وإن هم أبوا فليقاتلهم .

فان فعل فاسمع له وأطع وإن هو أبى فقاتلهم فأنت أمير الناس ، وثب عليه فاضرب عنقه وابعث الي برأسه »

كتاب ابن زياد

ثم كتب الى عمر بن سعد :

« أما بعد :

فاني لم أبعثك الى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقعد له عندي شافعا .

انظر فان نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم اليّ سلما :
وان أبوا فازحف اليهم حتي تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون . فان قتل حسين
فأوط الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع ظلوم »

إلى أن قال : —

« فان فعلت هذا به جزيناك جزاء السامع المطيع

وان أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخل بين شمر بن الجوشن وبين العسكر
فإنا قد أمرناه بأمرنا والسلام »

قدوم شمر بن ذي الجوشن

ثم أقبل شمر بن ذي الجوشن بكتاب ابن زياد الى عمر بن سعد فلما قرأه قال له :—

« ويلك ياشمر

لا قرب الله دارك ، وقبح الله ما قدمت به عليّ !

والله اني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به اليه .

أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح .

لا يستسلم والله حسين ، إن نفسنا أبية لبين جنبيه »

* * *

فقال له شمر :—

« أخبرني ما أنت صانع ؟

أتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوه ؟

وإلا فخل بيني وبين الجند والعسكر »

قال :

« لا ، ولا كرامة لك ، وأنا أتولى ذلك ! »

قال :

« فدونك ، وكن أنت على الرجال ! »

زحف الخيل

قالوا :

ثم نادى عمر بن سعد:

« يا خيل اركبي »

فركب في الناس وزحف نحوهم بعد صلاة العصر ، وحسين جالس أمام بيته محتبياً بسيفه

سنة من النوم

قالوا :

وانه لكذلك اذ خفق برأسه على ركبتيه ، وسمعت أخته زينب الصيحة فدنت من أخيها فقالت :—

« يا أخي

أما تسمع الاصوات قد اقتربت ؟ »

قالوا :

فرفع الحسين رأسه فقال :

اني رأيت رسول الله (ص) في المنام فقال لي :

« انك تروح الينا »

قالوا :

فلطمت أخته وجهها وقالت :

« ياويلتا »

فقال :—

« ليس لك الويل يا أخية !

« اسكتي رحمك الرحمن»

استماتة انصاره

« والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ،
ثم قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل كذا
ألف قتلة ، وان الله يدفع بذلك القتل عن
نفسك وعن أهلك وعن أنفس هؤلاء الفتية
من أهل بيتك » «زهير بن القين»

وما أكثر ما نجد في أخبار هذا المصرع المروّع من أنباء البطولة والأبطال ، وما أكثر ما نسمع من عبارات الفداء والايثار !

يطلب الحسين الى أهل بيته أن يتفرقوا عنه في سواد الليل — حين جد الجد وحزب الأمر — ويقول لهم : « إن القوم انما يطلبوني ، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري »

فيقول له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه : —

« لِمَ نفعل ؟ لنبقى بعدك ؟ لا أرانا الله ذلك أبداً »

ويقول كل من انصاره أمثال هذه الأقوال وأشباهها .

وانظر الى أحدهم يقول :—

« والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله (ص) فيك والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم أذر — يُفعل ذلك بي سبعين مرة — ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك . فكيف لا أفعل ذلك وانما هي قتلة واحدة ، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً »

ويقول آخرون : « والله لا نفارقك ، ولكن أنفسنا لك الفداء نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فاذا نحن قتلنا كنا وفينا وقضينا ما علينا » وهكذا

في الليلة الاخيرة

ويحدثنا علي بن الحسين فيقول : « إني لجالس في تلك العشية التي قتل أبي صبيحتها ، وعمتي زينب عندي تمرضني اذ اعتزل أبي بأصحابه — في خباء له — وعنده « حُوَيّ » — مولى « أبي ذر » — وهو يعالج سيفه ويصلحه، وأبي يقول

« يادهر أفٍّ لك من خليل كم لك بالاشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الامر الى الجليل وكل حيٍّ سالك السبيل »

قال علي بن الحسين :—

فأعادها أبي مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها، فعرفت ما أراد ، فخنقتني عبرتي فرددت دمعي ولزمت السكوت وعلمت أن البلاء قد نزل .

فأما عمتي فانها سمعت ماسمعت — وهي امرأة وفي النساء الرقة والجزع — فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها وإنها لحاسرة حتى انتهت اليه فقالت :—

« واثكلاه ! ليت اليوم اعدمني الحياة ! اليوم ماتت فاطمة أمي وعلي أبي وحسن أخي . يا خليفة الماضي وثمال الباقي »

فنظر الحسين فقال :—

« يا أخيّه ، لا يذهبن حلمك الشيطان »

قالت : — « بأبي أنت وأمي ، يا أبا عبد الله استقتلت نفسي ، فداك »

فرد غصته وترقرقت عيناه وقال :—

« لو ترك القطا ليلا لنام ! »

قالت : — « ياويلتا . أفتُغصَب نفسك اغتصابا ؟ فذلك أقرح لقلبي ، وأشد على نفسي » ولطمت وجهها وأهوت الى جيبها وشقته ، وخرت مغشياً عليها

فقام اليها الحسين ، فصب على وجهها الماء ، وقال لها :—

« يا أخية ، اتقي الله وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الارض يموتون وأن أهل السماء لايبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الارض بقدرته

ويبعث الخلق فيعودون — وهو فرد وحده — أبي خير مني وأمي خير مني وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله اسوة »

وعزاها بهذا الكلام ونحوه وقال لها : —

« يا أخية إني اقسم عليك فأبرّي قسمي . لا تشقي عليّ جيباً ولا تخمشي عليّ وجهاً ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت »

قال : « ثم جاء بها حتى اجلسها عندي وخرج الى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وان يدخلوا الاطناب بعضها في بعض وأن يكونوا هم إلى الوجه الذي يأتيه منه عدوهم »

يوم المصرع

وأمر الحسين أصحابه أن يلقوا بالحطب والقصب في خنادق كانوا حفروها خلف خيامهم لتحميهم من العدو حتى لا يباغتهم من ورائهم ، ففعلوا

ومن عجائب المقادير أن يمر بهم شمر بن ذي الجوشن فيرى النار تضطرم فينادي بأعلى صوته :—

« ياحسين . استعجلت النار في الدنيا قبل القيامة ؟ »

ويقول « مسلم بن عوسجة » للحسين :—

« يا ابن رسول الله جعلت فداك ، ألا أرميه بسهم فانه قد أمكنني »

فيقول له الحسين : — « لا ترمه ، فاني أكره أن أبدأهم »

وفي هذا دليل على ميل الحسين الى المسالمة حتى في آخر ساعة من ساعاته الحرجة ، وكأنما أراد أن يمعنوا في بغيهم الى آخر لحظة ، وأبى على نفسه أن يكون البادىء بالقتال فضيع بذلك فرصة نادرة بقتل هذا الشرير الخطر ، كما أضاع من قبلها كثيراً من الفرص .

ودارت بينه وبين الاعداء مناقشات طويلة فياضة بالبلاغة وقوة الحجة ولكن قلوب اعدائه قدّت من صخر فلم يأبهوا لما يقول

وقد تأثر بقوله الحر بن يزيد وانضم اليه — بعد تردد — حين رأى الحيف قد بلغ اقصاه

قالوا : « ولما زحف « عمر بن سعد » قال له الحر بن يزيد [١] : —

« أصلحك الله . أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ »

قال : — « أي والله قتالا أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الايدي »

قال : — « أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضى ؟ »

قال عمر بن سعد : — « أما والله لو كان الأمر اليّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك ؟ »

قالوا : فأقبل حتى وقف من الناس موقفا ، وأخذ يدنو من الحسين قليلا قليلا فقال له رجل من قومه :—

« ان امرك لمريب ، والله ما رأيت منك في موقف قط مثل شيء أراه الآن ، ولو قيل لي: «من أشجع أهل الكوفة رجلا » ما عدوتك في هذا الذي أرى منك »

قال : « اني والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، ووالله لا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحرقت » ثم ضرب فرسه فلحق بحسين فقال له :—

« جعلني الله فداك يا ابن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان . والله الذي لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ماعرضت عليهم أبدا ولا يبلغون منك هذه المنزلة !

فقلت في نفسي لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ولا يرون أني خرجت من طاعتهم ، وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التي يعرض عليهم .

والله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك

واني قد جئتك تائبا مما كان مني الى ربي ومواسيا لك بنفسي حتى أموت بين يديك أفترى ذلك لي توبة ؟ »

قال — : « نعم يتوب الله عليك ويغفرلك . ما اسمك ؟ »

قال—: « أنا الحر بن يزيد »

---

(١) ارجع الى ص ٣٤ من هذا الكتاب

قال : « أنت الحر كما سمتك أمك ، انت الحر ان شاء الله في الدنيا والاخرة »
وقد بر الحر بوعده وقاتل الاعداء حتى قتل[1]

مصارع الشهداء

« وزحف عمر بن سعد ، ثم وضع سهمه في كبد
قوسه ثم رمى ، فقال : اشهدوا أني أول من رمى »

وهكذا صرح الشر وبدأت الحرب المجرمة بهذا السهم الجائر وقتل انصار الحسين ـ واحدا بعد الاخر ـ وهو يرى بعينه مصارعهم ولا يستطيع أن يدفعها عنهم وهم يجودون بنفوسهم الكريمة رغبة في افتدائه ، وقد ذهبت هذه الارواح الطاهرة الى ربها دون أن تتمكن من انقاذ الحسين ، ولو شئنا أن نثبت في هذا الكتيب مصارع هؤلاء الشهداء ، لما بقي فيه مكان لغيرهم . رحمة الله عليهم جميعا .

---

(١) قالوا انه قال لاصحابه — :

« أيها القوم . ألا تقبلون من حسين خصلة من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟ »

قالوا : « هذا الامير عمر بن سعد فكلمه »

فلما جاء ابن سعد ،قال للحر —: « لو وجدت الى ذلك سبيلا لفعلت »

فقال الحر : « يا اهل الكوفة لامكم الهبل . دعوتموه حتى اذا أتاكم اسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو انفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، امسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه واحطتم به من كل جانب ، فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح في أيديكم كالاسير لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع ضرا ، وحلأتموه ونساءه وأصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وهاهم قد صرعهم العطش بئسما خلفتم محمدا في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ ان لم تتوبوا وتنزعوا عما انتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه »

قالوا « فحملت عليه فئة منهم ترميه بالنبل »

الحسين في ساعته الاخيرة

رأس ابن بنت محمد ووصيه يا للرجال على قناة يُرفع
والمسلمون — بمنظر وبمسمع — لا جازع من ذا ولا متخشع
أيقظت اجفانا وكنت لها كرى وانمت عينا لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظرك العيون عماية واصمّ نعيك كل اذن تسمع
ما روضة إلا تمنت أنها لك مضجع ولخط قبرك موضع

« دعبل »

وتأبى الاقدار القاسية الا أن يرى الحسين مصارع أهله وانصاره واحدا بعد الآخر وان يثكل في كل عزيز عنده فلا يجزع من مصاب جلل حتى يداهمه مصاب جلل[1] وما زال يلقى المصائب الفادحة بصبر وجلد حتى حانت منيته فلحق بهم أيضاً وقد اظهر الحسين من البسالة والاقدام ما لا مزيد عليه.

قالوا: « وكان يشد عليهم فينكشفون عنه ويفرون من أمامه، ثم انهم احاطوا به احاطة »

قالوا: « واقبل الى الحسين غلام من اهله وأخذته أخته زينب ابنة علي لتحبسه فقال لها الحسين — : « احبسيه »

---

(١) وقد شهد مصرع ولده الاكبر « علي ابن الحسين » حين قتلوه وقطعوه بأسيافهم، قال بعض من شهد مصرعه ـ :

سماع اذني ـ يومئذ ـ من الحسين يقول: قتل الله قوما قتلوك يابنيّ. ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول: على الدنيا العفاء!

قال: وكأني أنظر الى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة تنادي ـ :

« يا أخاه ويا ابن أخاه! »

فسألت عنها فقيل ـ : « هذه زينب بنت فاطمة ابنة رسول الله (ص) فجاءت حتى أكبت عليه، فجاءها الحسين فأخذ بيدها فردها الى الفسطاط واقبل الحسين الى ابنه واقبل فتيانه اليه فقال: « احملوا اخاكم »

فحملوه من مصرعه حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه.

فأبى الغلام ، وجاء يشتد الى الحسين فقام الى جنبه وقد اهوى احدهم الى الحسين بالسيف فاتقاه الغلام بيده فأطنها الا الجلدة فاذا يده معلقة ، فنادى الغلام ـ :

« يا أمتاه ! »

فأخذه الحسين فضمه الى صدره وقال : ـ

« يا ابن اخي . اصبر على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير فان الله يلحقك بآبائك الصالحين »

كيف صرع الحسين

رواية شاهد عيان

قال حميد بن مسلم : —

كانت عليه جبة من خز ، وكان معتما ، وكان مخصوبا بالوسمة .

وسمعته يقول ـ وهو يقاتل على رجليه قتال الفارس الشجاع : —

« أعلى قتلي تحاثون ؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله مني »

قال : « ولقد مكث طويلا من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يتقي بعضهم ببعض ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء »

قال : — فنادى شمر في الناس : —

« ويحكم ! ماذا تنظرون بالرجل ؟ اقتلوه ثكلتكم امهاتكم »

فحملوا عليه من كل جانب فضربت كفه اليسرى ضربة ، وضرب على عاتقه ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو ، وحمل عليه رجل فطعنه بالرمح فوقع ، وتعاورته الرماح ووطئته الخيل

قالوا : —

« فوجدوا بالحسين ثلاثا وثلاثين طعنة واربعا وثلاثين ضربة ثم سلبوا ما كان عليه ، ومال الناس على الاسلاب والحلل والابل فانتهبوها »

قالوا : « فان كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها . »

نخبة من مراثي الشعراء

وما أروع رثاء دعبل :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالبيت والتعريف والجمرات
ديار «علي» و«الحسين» و«جعفر» ... و«حمزة» و«السجاد» ذي الثفنات
قفا نسأل الدار التي خف أهلها ... متى عهدها بالصوم والصلوات
وأين الالى شطت بهم غربة النوى ... أفانين في الأوقات مفترقات
أحب قصي الدار من اجل حبهم ... وأهجر فيهم زوجتي وبناتي
ألم تر أني — مذ ثلاثين حجة — ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم في غيرهم متقسما ... وايديهم من فيئهم صفرات
فان قلت عرفا أنكروه بمنكر ... وغطوا على التحقيق بالشبهات
قصاراي منهم أن اذوب بغصة ... تردد بين الصدر واللهوات
كأنك بالاضلاع قد ضاق رحبها ... لما ضمنت من شدة الزفرات
لقد خفت في الدنيا وأيام عيشها ... واني لأرجو الأمن بعد وفاتي

وقول سليمان العدوي : —

مررت على ابيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وان اصبحت من اهلها قد تخلت
ألا ان قتلى الطف من آل هاشم ... اذلت رقابا من قريش فذلت
وكانوا غياثا ثم أضحوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
فما حفظوا قربى النبي وحقه ... لقد عميت عن ذاك منه وصمت

وقول زوج الحسين عاتكة بنت نفيل (١)

وحسينا فلا عدمت حسينا ... اقصدته اسنة الاعداء
غادرته بكربلاء صريعا ... جادت المزن في ذرى كربلاء

---

(١) عاتكه بنت نفيل قتل زوجها عبد الله بن أبي بكر الصديق ، ثم زوجت من عمر بن الخطاب فقتل ثم من الزبير بن العوام فقتل ثم من الحسين فقتل قالوا : فكان عبد الله بن عمر يقول : « من اراد أن يرزق الشهادة فليتزوج عاتكه بنت نفيل !

الأسباب التي أدت إلى مصرعه

« ويأبى قضاء مالكم عنه حاجز　　فألقوا الى مولاكم بالمقالد »

« ابو العلاء »

« ان أهل العراق قوم غدر ،
فلا تقربنهم
أقم بهذا البلد فانك سيد
الحجاز ، فان كان أهل العراق
يريدونك كما زعموا فاكتب
اليهم فلينفوا عدوهم ثم اقدم عليهم »

« ابن عباس »

لقد صُرع عمر وعثمان وعلي — رضي الله عنهم — فكان لمصرع كل منهم أثر في النفس لا ينسى وجزع متجدد كلما استعدنا مصارعهم .

على أن مصرع الحسين كان وحده سلسلة من الفجائع المروّعة والنكبات الأليمة أربت على مصارع كل هؤلاء مجتمعة ، وتضاءل أمامها كل مصاب مهما جلّ وعظم . وأي هول نراه في مصرع عثمان مثلا ثم لم نر من أشباهه في مصرع الحسين أهوالا ؟ ان أقسى الناس قلباً — مهما اختلفت ملته ونحلته — ليذوب قلبه أسى لهذا الشهيد الذي راح وأسرته شهداء أطهاراً يشكون الى الله ظلم الانسان أخاه الانسان من أجل المطامع الدنيوية الفانية . واني لأذكر مؤرخا عصريا — هو مثال المؤرخ المنصف الذي لا يستسلم للأهواء ومثال الرجل الجلْد الذي لا يجزع لمصاب مهما جل وعظم — قد فقد ولده بعد أن عاد ولده من انجلترا وأحرز أعلى الشهادات ، فلم يغلبه المصاب ، وتلقاه متجملاً متأسياً دون أن تقطر من عينه دمعة واحدة .

قال لي ذلك المؤرخ الرزين : —

« ولكنني لا أستطيع قراءة مصرع الحسين دون أن أسح الدمع مدرارا »

ونحن حين نقول ذلك لا نقوله مستسلمين الى العاطفة بل واصفين الحقيقة مجردة عن التزويق والبلاغة اللفظية . فقد ارتكب أعداء الحسين من ضروب الشنع والنذالة ما أربى على كل حد ، واقترفوا في سبيل المال والمنصب والجاه — مالم يجرؤ عليه أحد قبلهم ، ثم كانوا أسوأ قدوة عرفها التاريخ .

لقد كانت الدلائل كلها متضافرة تؤيد الوصول الى هذه النتيجة المحزنة وان كانت لانحتم وقوعها . ولقد كان الحسين نفسه يتوقع في كل مرحلة من مراحل سفره هذه العقبى المحزنة ولكنه — مع توقعه حدوثها — أو على الأصح مع استيقانه من ذلك ، يشك في اقدام الناس على قتله ، ويحسب أن مكانه الرفيع سيستثير — في أقسى القلوب وأصلبها — عاطفة نبيلة وأن منزلته من الرسول لا بد مستثيرة النخوة في كل قلب مهما بلغ من الصلابة والتحجر .

وأعجب مني كيف أخطىء دائماً   على انني من أعرف الناس بالناس

لقد حذره الفرزدق ، وقال له قولته المشهورة التي ذكرناها حين سأله رأيه فأجابه :

« إن قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني امية »

وحذره كثيرون غير الفرزدق فلم يستمع الى نصحهم . وأبى سوء الحظ ونكد الطالع إلا أن يستصحب معه أسرته فيتضاعف المصاب .

ولقد كان الناس كلما أحجموا عن قتله ، تقدم شرير منهم خطوة فدبّ الطمع في نفوس أصحابه وخشوا أن يسبقهم الى الاستئثار بذلك فينال بذلك السَبْق مالاً أو جاهاً يحرصون على أن لايحرموه .

ولقد تعاون حب المال وعدم قبول الحسين نصيحة المخلصين وتخاذل أنصاره وعدم تنظيم الدعوة على الوصول به الى هذه الغاية المروّعة .

(١) حب المال

فأما المال فقد لعب دوراً هاماً وكان له من الأثر الفعال مثلما كان له من الأثر في قتل عبدالله بن الزبير وتثبيت ملك معاوية ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية.

وقد اختار الأمويون لتنفيذ آرائهم قوماً لا يبالون بما يقدمون عليه مهما بلغ من النذالة والانحطاط ما داموا يحصلون على الرفعة أو المال أو الجاه.

ولنذكر للقارىء مثلا واحداً يتبين منه مدى الانحطاط الذي وصلت اليه هذه الفئة من الناس: —

فقد ذكروا أن عمر بن سعيد بن العاص حين بعث جيشاً من المدينة لمقاتلة ابن الزبير، وضرب على أهلها البعث الى مكة — وهم كارهون للخروج — قال لهم:

« اما أن تأتوا ببدل واما ان تخرجوا »

قالوا: فجاء أحدهم برجل استأجره بخمسمائة درهم الى عمرو بن سعيد. فقال له:

« قد جئتك برجل بدلي »

ثم التفت الى الرجل الذي استأجره فقال له: — « هل لك أن أزيدك خمسمائة اخرى وتغشي أمك »

فقال له « أما تستحي ؟ »

فقال: « انما حرمت عليك امك في مكان واحد وحرمت عليك الكعبة في كذا وكذا مكان من القرآن »

قالوا: فجاء به الى عمرو بن سعيد وقال له: —

قد جئتك برجل لو أمرته أن ..... أمه لفعل »

فقال له عمرو: — « لعنك الله من شيخ ! »

وانما اتينا بهذا المثال ليتبين القارىء منه أي فئة من الناس كانت تلك الفئة التي أقدمت على قتل الحسين وهو من هو من رسول الله !

(٢) عدم قبول النصائح

ولقد أصرّ الحسين — رضي الله عنه — على الذهاب دون أن يستمع الى نصح الناصحين ، وقد ذكرنا قولة الفرزدق الحكيمة له ، ولنذكر ههنا نصيحة ابن عباس البعيد النظر .

ذكروا أن الحسين لما أجمع المسير الى الكوفة أتاه عبد الله بن عباس فقال له :

« يا ابن عم ! انك قد أرجف الناس أنك سائر الى العراق ، فبين لي ما أنت صانع ؟ » — فقال له الحسين : —

« اني قد أجمعت المسير في أحد يوميّ هذين ان شاء الله تعالى »

فقال له ابن عباس : — فاني اعيذك بالله من ذلك . أخبرني — رحمك الله — أتسير الى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم . وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانهم إنما دعوك الى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك وان يستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك »

فقال له الحسين :— « واني استخير الله وانظر ما يكون »

وقد كان في هذه النصيحة الحكيمة مقنع لو لا أن القضاء يأبى إلا أن ينفذه

ثم جاء منافسه في الخلافه « عبدالله بن الزبير » فحدثه ساعة — كما يقولون — ثم قال :— «ما أدري ما تركُنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم ؟ خبرني ما تريد أن تصنع ؟ »

فقال الحسين : — « والله لقد حدثت نفسي باتيان الكوفة ، ولقد كتب اليّ شيعتي بها واشراف أهلها ، واستخير الله »

فقال له ابن الزبير : — « أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلتُ بها شيئاً »

قالوا : ثم انه خشي أن يتهمه فقال له : — « أما انك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الامر ههنا ما خولف عليك ان شاء الله ! » ثم قام فخرج من عنده .

فقال الحسين : — «ها إن هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب اليه من أن

أخرج من الحجاز الى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء، وان الناس لم يعدلوه بي فود" اني خرجت منها لتخلو له »

قالوا : فلما كان من العشي ـ أو من الغد ـ أتى الحسين عبدالله بن العباس فقال :—
« يا ابن عم ! اني اتصبر ولا أصبر ، اني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال . ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم . أقم بهذا البلد فانك سيد الحجاز فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم .

فان ابيت إلا أن تخرج ، فسر الى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس في عزلة . فتكتب الى الناس وتبث دعاتك . فاني أرجو أن يأتيك — عند ذلك — الذي تحب في عافية »

فقال له الحسين :— « يا ابن عم ! «اني والله أعلم أنك ناصح مشفق،ولكني زمعت وأجمعت على المسير »

فقال له ابن عباس : — فان كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك . فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه »

ثم قال ابن عباس : لقد اقررت عين ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز والخروج منها وهو اليوم لا ينظر اليه أحد معك . والله الذي لا إله إلا هو ، لو أعلم انك اذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي" وعليك الناس أطعتني لفعلت ذلك »

قالوا :— ثم خرج ابن عباس من عنده فمر بعبد الله بن الزبير فقال :—
«قر"ت عينك يا ابن الزبير » ثم قال :

يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري »

***

وهكذا ضرب الحسين بتلك النصائح القيمة عرض الأفق وسار الى حينه سيراً حثيثاً ، وهو الأديب الفطن الذي لم تكن لتفوته خافية ولكنه القدر : « والعقل زين ولكن فوقه قدر » كما يقول أبو العلاء .

(٣) عدم تنظيم الدعوة

أما العناية بتنظيم الدعوة وتنظيم أمرها فقد أغفلت اغفالا تاماً ، فقد اكتفى الحسين بثقته من محبة الناس إياه واجلالهم له لمكانه من الرسول ، وا كتفى انصاره باخلاصهم له وتفانيهم في حبه دون أن ينظموا دعوتهم ويوحدوا صفوفهم ويحتاطوا لمكائد اعدائهم . فكانت العاقبة فشلا محققاً .

(٤) تخاذل أنصاره

أما تخاذل انصاره فهو واضح لا يحتاج أي تدليل . فقد كانوا متخاذلين في سياستهم مترددين في عزيمتهم ، مكتفين باخلاصهم للحسين معتمدين على ان حقهم سيغلب — بلا شك باطل خصومهم . وقد كان فيهم أفراد غاية في البطولة ، ولكنهم صرعوا لتخلف الجماعة عنهم. انظر الى هانيء بن عروة يتمارض ليعوده ابن زياد في بيته ، ثم يوصي أصحابه بقتل ابن زياد وقت زيارته اياه، متى قال لهم هانيء :— « اسقوني » فيجيء ابن زياد يعوده ، ويقول هانيء اسقوني فلا يلبيه أحد . ثم يخرج ابن زياد آمناً مطمئناً ويتبين المكيدة فيأمر باحضار هانيء اليه ، فيحضرونه اليه رغم أنفه فيتناول ابن زياد العصا التي كانت مع هانيء فيضرب بها وجهه حتى يكسرها ثم يقدمه فيضرب عنقه . وهكذا يتبدل مجرى التاريخ بسبب ذلك الضعف وتسير الأمور في غير مجراها الذي كان من الطبيعي أن تسير فيه .

وانظر الى مسلم بن عقيل يخذله من معه وهم نحو ثلاثين الفاً — وهم كثيرون — ويتفرقون عنه فيسلموه الى عدوه ، وقد كان النصر حليفه لو كان أنصاره مخلصين في معاونته مستبسلين في الدفاع عن رأيهم فاذا دعا به عبيدالله بن زياد ليضرب عنقه قال له مسلم :— « دعني حتى أوصي » ثم ينظر في وجوه الناس فيرى عمر ابن سعد فيقول له :— « ما أرى هاهنا من قريش غيرك فادنُ مني حتى اكلمك » فيدنو منه عمرو بن سعد فيقول له مسلم :— « هل لك أن تكون سيد قريش ما كانت قريش؟

ان الحسين ومن معه — وهم تسعون بين رجل وامرأة — في الطريق فارددهم وا كتب اليهم بما أصابني .

قالوا : ثم ضرب عنقه وقد أفضي عمر بن سعد الى ابن زياد بما أخبره به مسلم فقال له ابن زياد : —

« أما والله اذ دللت عليه لا يقاتلهم أحد غيرك[1] . »

---

(١) قالوا : ان مسلماً حين ادخل على ابن زياده لم يسلم عليه بالامرة

فقال له أحدهم : —

« ألا تسلم على الأمير

فقال له : —

« ان كان يريد قتلي في سلامي عليه ، وان كان لا يريد قتلي ، فلعمري ليكثرن سلامي عليه »

فقال له ابن زياد : —

« لعمرى لتقتلن »

قال : « كذلك ؟ »

قال : « نعم »

قال : « فدعني أوص الى بعض قومي »

ثم نظر الى جلساء عبيدالله — وفيهم « عمر بن سعد » فقال : —

« يا عمر ان بيني وبينك قرابة ، ولي اليك حاجة وقد يجب لي عليك نجح حاجتي — وهو سر »

قالوا : — « فأبى ان يمكنه من ذكرها »

فقال له عبيدالله : —

« لا تمتنع ان تنظر في حاجة ابن عمك »

فقام معه فجلس حيث ينظر اليه ابن زياد ، فأسر اليه بمكان الحسين وطلب

وهكذا أراد الله أن تتضافر الاسباب كلها على اهلاك الحسين وأن يشترك أعداؤه مع أنصاره — على الرغم منهم — في تعجيل موته . ونحسب أن كلمة ابن عباس التي ذكرناها في هذا الفصل قد جمعت أهم الاسباب الأخرى التي أدت الى هذا المصرع المروّع.

اليه أن يبعث اليه من يرده ، فأخبر ابن زياد بذلك .

* * *

وقد رثى بعض الشعراء مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة بالأبيات التالية وقد نسبها بعضهم الى الفرزدق : —

ان كنت لاتدرين ما الموت فانظري ... الى هانىء في السوق وابن عقيل
الى بطل قد هشّم السيف وجهه ... وآخر يهوي من طمار قتيل
أصابهما أمر الامير ، فأصبحا ... أحاديث من يسري بكل سبيل
ترى جسداً قد غيّر الموت لونه ... ونضحَ دم قد سال كل مسيل
فتى هو أحيى من فتاة حيية ... وأقطع من ذى شفرتين صقيل

***

أيركب أسماء الهماليجَ آمناً ... وقد طلبته مَذْحج بذحول
تطيف حواليه مراد وكلهم ... على رقبة ، من سائل ومسول ؟
فان أنتم لم تثأروا بأخيكم ... فكونوا بغايا أرضيت بقليل

(١) مصرع صالح بن مسرح (١)

« فلما شد عليهم الحارث بن عميرة في جماعة
اصحابه انكشف سويد وضارب شبيب حتى صرع
وثبت صالح بن مسرح فقتل »

كيف أوقد نار الفتنة

« ما أدري ما تنتظرون ؟
حتى متى أنتم مقيمون ؟
هذا الجور قد فشا، وهذا العدل قد عفا، ولا
تزداد الولاة على الناس الا غلوًّا وعتوا وتباعدا
عن الحق وجرأة على الرب ، فاستعدوا وابعثوا
الى اخوانكم الذين يريدون — من انكار الباطل
والدعاء الى الحق مثل الذي يريدون فيأتوكم فنلتقي
وننظر فيما نحن صانعون وفي أي وقت ان خرجنا
نحن خارجون » صالح بن مسرح

---

(١) قتل سنة ٧٦ هـ ، وكان ناسكا زاهدا مصفر الوجه صاحب عبادة ، وكان يقيم بأرض الموصل، وله اصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين ويقص عليهم القصص وكان صالح بن مسرح التميمي هذا يرى رأي الصفرية . وقد حج في سنة ٧٥ مع شبيب بن يزيد الشيباني وسويد والبطين وغيرهم من الخوارج — وكان عبدالملك قد حج في تلك السنة — فهم شبيب أن يفتك به ولكنه لم يجد فرصة سانحة لقتله قالوا : وعلم عبدالملك بأخبارهم فكتب الى الحجاج بطلبهم

هكذا كان يوقد صالح نار الفتنة ويحث اصحابه من الخوارج ويذيع دعوته بين الناس ويتخذ من زهده ونسكه — أو من تظاهره بالزهد والنسك على الاصح وسيلة الى استنفار المسلمين لقتال اخوانهم من المسلمين وتمزيق وحدتهم وشق عصا الطاعة على الحكام ، وايقاظ نار فتنة هوجاء طالما ايقظها اضرابه من الخوارج فشغلت الامم الاسلامية بعضهم ببعض واضاعت من قواها ما لو وجهت بعضه الى الغزو لتضاعف انتصارها أو الى الاصلاح لاتى بأطيب الثمار .

نموذج من قصصه

واليك نموذجا من قصصه الذي كان يذيعه بين الناس مؤيدا به مذهبه ووجهة نظره فقد كان يكثر من حمد الله والصلاة على نبيه وعلى أبي بكر وعمر ليمهد بذلك الى الطعن على عثمان وعلي وكافة المسلمين والتحريض على سفك الدماء وقتل الابرياء ومما نذكره من كلامه قوله : —

« ان فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال تعالى في كتابه : — .

« ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون »

الى ان يقول : —

« ألا ان من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم فعلمهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم ووفقهم في دينهم وكان بالمؤمنين رؤوفا رحيما حتى قبضه الله (ص) ثم ولي الامر من بعده التقي الصديق — على الرضى من المسلمين — فاقتدى بهديه واستن بسنته حتى لحق بالله — رحمه الله — واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله واحيا سنة رسول الله ولم يخف في الله لومة لائم حتى لحق به رحمة الله عليه »

ومتى أتم مدحه الرسول وخليفتيه انتقل الى بيت القصيد الذي مهد اليه بهذا

التمهيد ، وهو الطعن على كل مسلم لا يرى رأي الخوارج وسب الخليفتين عثمان وعلي ومن تلاهما من الخلفاء . فيقول : —

« وولي المسلمين — من بعده — عثمان فاستأثر بالفيء وعطل الحدود وجار في الحكم واستذل المؤمن وعزز المجرم ، فسار اليه المسلمون فقتلوه فبرىء الله منه ورسوله وصالح المؤمنين

وولي أمر الناس — من بعده — علي بن أبي طالب فلم ينشب أن حكم في أمر الله الرجال ، وشك في أهل الضلال ، فنحن من علي واشياعه برءاء »

ومتى انتهى من هذه المرحلة الثانية وهي الطعن على عثمان وعلى من سار على اثرهما اتخذ من طعنه تكأة للوصول الى غرضه الذي أراد التمهيد اليه ، وهو الثورة واشعال نار الفتنة عن طريق التظاهر بالغضب للدين والغيرة عليه والحث على طاعة الله ، فيقول : —

« فتيسروا — رحمكم الله لجهاد هذه الاحزاب المتحزبة وائمة الضلال الظلمة وللخروج من دار الفناء الى دار البقاء واللحاق الى اخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة وانفقوا أموالهم التماس رضوان الله في العاقبة

ولا تجزعوا من القتل في الله فان القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم غير ما ترجم الظنون ، فمفرق بينكم وبين آبائكم وابنائكم وحلائلكم ودنياكم ، وان اشتد لذلك كرهكم وجزعكم .

ألافبيعوا الله انفسكم وأموالكم طائعين تدخلوا الجنة آمنين وتعانقوا الحور العين

جعلنا الله واياكم من الشاكرين الذاكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون »

كتاب شبيب الى صالح

نشط اصحاب صالح يذيعون دعوته ويتراسلون وانهم لكذلك اذ جاءهم كتاب من شبيب بن يزيد الشيباني يحثهم على الاسراع في الجهاد ، ويقول لصالح :

« أما بعد فقد علمت انك كنت أردت الشخوص وقد كنت دعوتني الى ذلك فاستجبت لك ، فان كان ذلك اليوم من شأنك فأنت شيخ المسلمين ولن نعدل بك منا أحدا ، وان أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتني ، فان الآجال غادية ورائحة ولا آمن ان تخترمني المنية ولما اجاهد الظالمين . فياله غبناً وياله فضلا متروكا

جعلنا الله واياك ممن يريد بعمله الله ورضوانه والنظر الى وجهه ومرافقة الصالحين في دار السلام

والسلام عليك »

رد صالح على شبيب

وقد كتب اليه صالح يقول : —

« أما بعد .

فقد كان كتابك وخبرك ابطئا عني حتى أهمني ذلك ، ثم ان امرأ من المسلمين نبأني بنبأ مخرجك ومقدمك فنحمد الله على قضاء ربنا .

وقد قدم عليّ رسولك بكتابك فكل مافيه قد فهمته ونحن في جهاز واستعداد للخروج ولم يمنعني من الخروج الا انتظارك . فأقبل الينا ثم اخرج بنا متى احببت فانك ممن لا يستغنى عن رأيه ولا تُقضى دونه الامور

والسلام عليك »

انضمام شبيب الى صالح

لم يكد يصل كتاب صالح الى شبيب حتى بعث الى نفر من اصحابه فجمعهم اليه ثم خرج الى صالح فلما لقيه قال له : —

« اخرج بنا — رحمك الله — فوالله ما تزداد السنة الا دروساً ولا يزداد المجرمون الا طغياناً »

فأجابه صالح الي ذلك وبعث الي اصحابه وواعدهم الخروج في هلال صفر

سنة ٧٦ . فلما كانت الليـلة التي اتفقوا عليها اجتمعوا وخرج صـالح بهم وكانوا مائة وعشرين رجلا

دواب محمد بن مروان

« هـذه دواب لمحمـد بن مروان في هذا
الرستاق فابدؤا بها فشدوا عليها فاحملوا أرجلكم
وتقووا بها على عدوكم » (صالح)

ولقد كانوا متعطشين الى الشر فبدؤا عدوانهم بأخذ تلك الدواب فحملوا رجالتهم عليها وصاروا فرسانا وتحصن منهم أهل دارا وأهل نصيبين.

المعركة الاولى

واستخف بهم محمد بن مروان حين بلغه أمرهم فبعث اليهم أحد قواده (١) في الف رجل . وأراد القائد أن يهادنهم فبعث اليهم رسولا يخبرهم انه يلقاهم وهو كاره ويطلب اليهم ان ينصرفوا عن هذا البلد الى غيره فحبسوا الرسول ودهموا ذلك الجيش ـ وهو على غير تعبية وقائدهم يصلي الضحى ـ فهزموه وهرب عديّ واصحابه وانتهبوا اموالهم واسلابهم .

الموقعة الثانية

لم يكد يعلم محمد بن مروان بهزيمة الجيش حتى غضب وارسل قائدين من قواده على جيشين : عدد كل جيش منهما الف وخمسمائة فارس وطلب الى القائدين التعجيل بالخروج اليه وقال لهما : —

« اخرجا الى هذه الخارجة الخبيثة ، وعجلا الخروج وأغذا السير ، فأيكما سبق صاحبه فهو الامير على صاحبه

قالوا : —

---

(١) هو عدي بن عدي بن عميرة

فخرجا من عنده فأغذا السير وجعلا يسألان عن صالح بن مسرح فيقال لهما :—
« إنه توجه نحو آمد »

فاتبعاه حتى انتهيا اليه — وقد نزل على اهل آمد . فنزلا ليلا فخندقا وانتهيا اليه — وهما متساندان — كل واحد منهما في اصحابه على حدته . فوجه صالح شبيبا الى احداهما في شطر اصحابه وتوجه الى الآخر في الشطر الثاني

« رواية شاهد عيان »

وبدأ القتال من العصر الى المساء .

قال أحد اصحاب صالح :—

صلى بنا صالح العصر ثم عبانا لهم فاقتتلنا كأشد قتال اقتتله قوم قط

وجعلنا — والله — نرى الظفر ، يحمل الرجل منا على العشرة منهم فيهزمهم وعلى العشرين فيهزمهم

وجعلت خيلهم لاتثبت لخيلنا . فلما رأى اميراهم ذلك ترجلا وأمرا جلّ من معهما فترجل

فعند ذلك جعلنا لا نقدر منهم على الذي نريد .

اذا حملنا عليهم استقبلتنا رجالتهم بالرماح ونضحتنا رماتهم بالنبل ، وخيلهم تطاردنا في خلال ذلك. فقاتلناهم إلى المساء حتى حال الليل بيننا وبينهم وقد أفشوا فينا الجراحة وأفشيناها فيهم

ووالله ماأمسينا حتى كرهناهم وكرهونا وقد قتلوا منا نحوا من ثلاثين رجلا وقتلنا منهم أكثر من سبعين فوقفنا مقابلهم ما يقدمون علينا وما نقدم عليهم. فلما امسوا رجعوا الى عسكرهم ورجعنا الى عسكرنا .

وقد أجتمع صالح واصحابه للشورى فقال شبيب : —

« انا قد لقينا هؤلاء القوم فقاتلناهم وقد اعتصموا بخندقهم فلا أرى أن نقيم عليهم »

فوافقه صالح على رأيه وخرجوا في ليلتهم سائرين حتى وصلوا الى ارض الموصل ثم قطعوها ومضوا حتى قطعوا الدسكرة .

الموقعة الحاسمة

ولم يكد يعلم الحجاج بذلك حتى بعث اليهم « الحارث بن عميرة » في ثلاثة آلاف رجل ، فلقيهم في احدى قرى الموصل — وصالح في تسعين رجلا — فعبّى صالح اصحابه في ثلاثة كراديس في كل كردوس ثلاثون رجلا . فهو في كردوس وشبيب في كردوس في ميمنته وسويد في كردوس فى الميسرة

مصرع صالح

قالوا :

« فلما شد عليهم الحارث ابن عميرة — في جماعة اصحابه — انكشف سويد وثبت صالح بن مسرح فقتل وضارب شبيب حتى صرع (١)

---

(١) قالوا ان شبيبا صرع عن فرسه فوقع في رجاله ، فشد عليهم فانكشفوا فجاء حتى انتهى الى موقف صالح بن مسرح وأصابه قتيلا فنادى : —

« إليّ يامعشر المسلمين » فلاذوا به

فقال لاصحابه : —

« ليجعل كل منكم ظهره الى ظهر صاحبه وليطاعن عدوه اذا أقدم عليه حتى ندخل هذا الحصن ونرى رأينا » ففعلوا حتى دخلوا الحصن »

(٢) مصرع شبيب [١]

« فأقبل شبيب على فرسه — وكانت بين يديه فرس أنثى — فنزا عليها فرسه — وهو فوق الجسر — فاضطربت ونزل حافر فرسه على حرف السفينة فسقط في الماء وسقط معه شبيب — وهو مثقل بالحديد من درع ومغفر وغيرهما — فقال :—

« ليقضي الله أمراً كان مفعولا »

وارتمس في الماء ثم ارتفع فقال له بعض أصحابه وهو يغرق :—

« أغرقا يا أمير المؤمنين ؟

فقال :— « ذلك تقدير العزيز العليم »

شجاعة شبيب

ليت شعري أي مصرع كان يلقاه شبيب لو لم يهلك غرقا ؟

لقد كان شبيب قوة لا تقهر ، وقد اظهر من ضروب البسالة والاقدام ماسلكه في عداد القواد العالميين الذين كتبوا في سجل الخلود ؟ ولست ادري الى أي مدى كان يتغير التاريخ الاسلامي لو لم يعاجله القضاء

ويأتي قضاء مالكم عنه حاجز   فألقوا الى مولاكم بالمقالد

لقد كان يهزم الجيش المكون من ألوف الفرسان وهو — في عشرات من رجاله — وكان مُلهم الخاطر فطنا بطرق النصر ، بطلا في انتصاره وهزيمته على

---

(١) هو شبيب بن يزيد التميمي وكانت أمه من سبايا الروم اشتراها أبوه وهي جارية حمراء شهلاء زرقاء طويلة جميلة تأخذها العين ، ولدت شبيب في عيد الأضحى من سنة ٢٥ هـ . وقد لقي مصرعه في سنة ٧٨ هـ »

السواء ، لا يكاد يرى أن حربه مع خصمه غير مجدية حتى يولي وجهه الى مكان آخر تجدي فيه الشجاعة والاقدام ، ولا يضعف إلا ريثما يستريش وينجبر ويعود بعد قليل من الزمن أقوى منه من قبل . ومن الناس من تقرأ تاريخه فتشعر من اعماق نفسك أن مثل هذا لا يغلب ولا سبيل الى هزيمته ولو تألبت عليه قوى الارض كلها ، وهذا هو شعور كل من يتتبع اخبار شبيب وحروبه المظفرة .

ولو كان شبيب رجلا غربيا لكان رجلا عالميا لا يجهله احد من خاصة الناس وعامتهم في أقطار الارض قاطبة ، ولكنه عربي أولا ، وخارجي ثانيا .

النصر الاول

رأينا في مصرع صالح بن مسرح كيف انتهت الوقعة الاخيرة بقتل صالح وكادت تنتهي بقتل شبيب معه ، فقد صرع عن فرسه ، ولكن شجاعته الخارقة لم تفته في هذا الموطن الحرج فشد على أعدائه فكشفهم ، ثم نادى اصحابه فلاذوا به فقال لهم : —

« ليجعل كل واحد منكم ظهره الى ظهر صاحبه وليطاعن عدوه اذا أقدم عليه حتى ندخل هذا الحصن ونرى رأينا »

وقد استطاع اصحابه — وعدتهم سبعون رجلا — أن يصلوا الى الحصن ويدخلوه بفضل هذه النصيحة الحكيمة ، وكان ذلك في المساء .

ولم يلبثوا في الحصن الا قليلا حتى قال لهم شبيب : —

« ما تنتظرون ؟ فوالله لئن صبحكم هؤلاء غدوة إنه لهلاككم »

فقالوا له : —

« مرنا بأمرك »

فقال لهم : —

« إن الليل أخفى للويل . بايعوا من شئتم ثم اخرجوا بنا حتى نشد عليهم في عسكرهم فانهم لذلك منكم آمنون وأنا أرجو أن ينصركم الله عليهم »

قالوا له : —

« فابسط يدك فلنبايعك »

فبايعوه، ثم خرجوا ،فلم يشعر أعداؤهم إلا وشبيب واصحابه يضربونهم بالسيوف في جوف عسكرهم ، فضاربوهم حتى صرع قائدهم «الحارث » فاحتمله اصحابه وانهزموا وخلوا لهم العسكر وما فيه .

وهكذا استطاع شبيب ـ بفضل شجاعته واقدامه وبعد نظره ـ أن يغنم موقعة خاسرة وأن ينتصر في موقف كل ما فيه ينطق بأن الهزيمة لابد حائقة به والخذلان لابد مكتوب عليه ، كما استطاع ان يهزم الجيش الذي قتل صالحا وكاد يقضي على اصحاب صالح وشبيب ، وتم لشبيب النصر بفضل اقدامه وحزمه .

قالوا : —

« وكان ذلك الجيش أول جيش هزمه شبيب »

نصر جديد

وعظم أمر شبيب بعد هذه الوقعة ، ولم يلبث أن رأى فيه الحجاج مناوئا خطرا وخصما لدوداً ، وبعث الحجاج إلى « سفيان الخثعمي » أن يسير حتى ينزل بالدسكرة فيمن معه ثم يقيم حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة الهمداني «الذي قتل صالح بن مسرح » فيسيروا جميعا الى شبيب لمناجزته .

ولكن سفيان عجل الارتحال في طلب شبيب فلحقه بخانقين — في سفح جبل —

قالوا : « وأصحر لهم شبيب ثم ارتفع عنهم كأنه يكره لقاءه ـ وكان شبيب قد أكمن له أخاه ومعه خمسون :

فحسبوا شبيبا قد هرب فأسرعوا خلفه ، حتى اذا جازوا الكمين عطف عليهم وخرج الكمين من خلفهم، فحمل شبيب عليهم من أمامهم وصاح بهم الكمين من ورائهم فكانت الهزيمة لهم والنصر لشبيب . وقد خر سفيان بين القتلى ثم حمل جريحا ، بعد ان استبسل في قتاله واخبر الحجاج بما كان من أمره فقبل عذره وكتب اليه الحجاج :—

« أما بعد فقد احسنت البلاء وقضيت الذي عليك ، فاذا خف عنك الوجع فاقبل مأجورا الى اهلك والسلام »

***

وخرج « سورة بن ابجر » في طلب شبيب — كما أمره الحجاج —

قالوا : — « وتخير ثلاثمائة رجل من أهل القوة والجلد والشجاعة ، ولكن شبيبا انتهى بالتغلب عليه وهزمه وجيشه

حربه مع الجزل بن سعيد

ودعا الحجاج اليه « الجزل عثمان بن سعيد » فقال له : —

« تيسر للخروج الى هـذه المارقة ، فاذا لقيتهم فلا تعجل عجلة الخرق ولا تحجم احجام الواني الفرق ، هل فهمت »

فقال « نعم أصلح الله الأمير ، قدفهمت »

: « فاخرج فعسكر بدير عبد الرحمن حتى يخرج اليك الناس »

فقال :« أصلح الله الأمير ، لا تبعثن معي أحداً من أهل الجند المفلول المهزوم فان الرعب قد دخل قلوبهم » .

فقال له : « ذلك لك ، ولا أراك إلا قد احسنت الرأي ووفقت »

وجمع له الحجاج أربعة آلاف رجل ، ثم نادى منادي الحجاج فيهم أن برئت الذمة من رجل أصبناه من هذا البعث متخلفا »

ومازال الجزل بن سعيد يسير في أثر شبيب — وشبيب يريه الهيبة — ويخرج من رستاق الى رستاق ، وانما أراد شبيب بذلك أن يفرق الجزل اصحابه ويتعجل اليه فيلقاه في يسير من الناس على غير تعبية . ولكن الجزل كان حريصا فلم يكن يسير إلا على تعبية ولا ينزل الا خندق على نفسه خندقا .

وطال الزمن عليهم . وأراد شبيب أن يبيته ، ولكنه وجد الجزل حذرا وقد بث العيون والارصاد فلم يظفر منهم بطائل قالوا :

فلما رأى شبيب أنه لايصل اليهم تركهم بعد أن اعاد الكرة فلم يفلح .

وجد الجزل في أثرهم ، وكان — كما يقولون — يتبعهم فلا يسير إلا على تعبية ولا ينزل إلا على خندق ، وكان شبيب يدعه ويضرب فيما يليه من الاراضي يكسر الخراج ، وطال ذلك على الحجاج ، فكتب الى الجزل :—

«أما بعد ، فقد بعثتك في فرسان أهل المصر ووجوه الناس وامرتك باتباع

هذه المارقة الضالة المضلة حتى تلقاها فلا تقلع عنها حتى تقتلها وتفنيها ، فوجدت التعريس في القرى والتخييم في الخنادق أهون عليك من المضي لما أمرتك به من مناهضتهم ومناجزتهم والسلام »

قال أحد جنود ذلك الجيش : —

« فقرىء الكتاب علينا ، فشق ذلك على الجزل ، وأمر الناس بالسير، فخرجوا في طلب الخوارج جادين ، وأرجفنا بأميرنا وقلنا : يعزل »

* * *

وبعث الحجاج « سعيد بن المجالد » على ذلك الجيش وعهد اليه : —

« إن لقيت المارقة فازحف اليهم ولا تناظرهم ولا تطاولهم، واستعن بالله عليهم، ولا تصنع صنيع الجزل ، واطلبهم طلب السبع ، وحد عنهم حيدان الضبع »

حماسة سعيد بن المجالد

وسار سعيد حتى وصل عسكر أهل الكوفة وكان الجزل قد أدرك شبيبا في النهروان ، ولزم عسكره وخندق عليه

فقام سعيد فيهم خطيبا متحمسا ، فقال :

« ياأهل الكوفة إنكم قد عجزتم ووهنتم واغضبتم عليكم أميركم وأنتم في طلب هذه الاعاريب العجف منذ شهرين وقد خربوا بلادكم وكسروا خراجكم وأنتم حاذرون في جوف هذه الخنادق لاتزايلونها إلى أن يبلغكم أنهم قد ارتحلوا عنكم ونزلوا بلدا سوى بلدكم : اخرجوا — على اسم الله — إليهم »

قالوا : « فخرج وأخرج الناس معه وجمع اليه خيول أهل العسكر ، فقال له الجزل — : « ماتريد أن تصنع ؟ »

قال — : « أريد أن أقدم على شبيب في هذه الخيل »

فقال له الجزل : —

« أقم أنت في جماعة الجيش — فارسهم وراجلهم — وأصحر له، فوالله ليقدمن عليك، فلا تفرق أصحابك فان ذلك شر لهم وخير له »

ولكن سعيداً المتحمس أبى أن يصيخ الى هذه النصيحة القيمة المؤسسة على الروية والتجربة واصالة الرأي . فقال للجزل : —

« قف أنت في الصف »

فقال له الجزل : —

« ياسعيد بن مجالد : ليس لي فيما صنعت رأي ، أنا برىء من رأيك هذا ، سمع الله ومن حضر من المسلمين. »

فقال سعيد : —

« هو رأيي ، إن أصبت فالله وفقني له وان يكن غير صواب فانتم منه براء »

وهكذا تأهب سعيد للحرب وأخرج الجند من الخنادق . ليعجل بقتل شبيب واصحابه — فيما يزعم — وهو على الحقيقة إنما يتعجل الهلاك لنفسه الهزيمة لجيشه من حيث لا يعلم.

مثال من شجاعة شبيب

وكان شبيب قد أمر باغلاق باب المدينة وأمر الدهقان باحضار طعام لهم ،

وصعد الدهقان السور ، فنظر إلى الجند مقبلين قد دنوا من الحصن ، فنزل وقد تغير لونه ، فقال له شبيب : —

« مالي أراك متغير اللون ؟ »

فقال له الدهقان :—

« قد جاءتك الجنود من كل ناحية »

قال : « لا بأس ، هل أدرك غداؤنا»

قال : « نعم » قال : « فقرّبه »

واتى بالغداء فتغدى وتوضأ وصلى ركعتين ،ثم دعا ببغل له فركبه ، ثم اجتمعوا ، وأمر بالباب ففتح ثم خرج علي بغله .

مصرع سعيد بن مجالد

وحمل عليهم شبيب وهو يقول : لاحكم إلا للحكم الحكيم ، اثبتوا ان شئتم»

قالوا : وجعل سعيد يجمع قومه وخيله ثم يدلفها في أثره وهو يقول : —

« ماهؤلاء ؟ أنهم أكلة رأس »

ولم يلبث شبيب أن شد عليهم فهزمهم ، وثبت سعيد بن مجالد وظل ينادي أصحابه : —

« الىّ الىّ أنا ابن ذي مروان »

قالوا : « فأخذ قلنسوته فوضعها على قربوس سرجه ، وحمل عليه شبيب فعممه بالسيف فخالط دماغه فخر ميتا »

وهكذا هزم الجيش وقتلوا كل قتله حتي انتهوا إلى الجزل، وقد قاتل الجزل قتالا شديدا حتى حمل من بين القتلى جريحا . ثم كتب الى الحجاج بما حدث .

كتاب الجزل الى الحجاج

« أما بعد ، فاني أخبر الأمير — أصلحه الله — أني خرجت فيمن قبلي من الجند الذى وجهني فيه الى عدوه ، وقد كنت حفظت عهد الأمير الي فيهم ورأيه .

فكنت أخرج إليهم اذا رأيت الفرصة، وأحبس الناس عنهم اذا خشيت الورطة ، فلم أزل كذلك

ولقد أرادني العدو بكل ارادة فلم يصب مني غرة ، حتى قدم علي « سعيد بن مجالد » رحمة الله عليه ، ولقد أمرته بالتؤدة ونهيته عن العجلة، أمرته أن لا يقاتلهم إلا في جماعة من الناس عامة فعصاني وتعجل اليهم في الخيل فاشهدت عليه أهل المصرين اني برىء من رأيه الذي رأى وأني لا أهوى ماصنع، فمضى فأصيب — تجاوز الله عنه — ودفع الناس الي فنزلت ورفعت لهم رايتي وقاتلت حتى صرعت ، فحملني أصحابي من بين القتلى، فما أفقت إلا وأنا على أيديهم — على رأس ميل من المعركة — فأنا اليوم بالمدائن في جراحة قد يموت الرجل من دونها ويعافى من مثلها .

فليسأل الأمير — أصلحه الله — عن نصيحتي له ولجنده ، وعن مكايدتي عدوه ، وعن موقفي يوم البأس ، فانه يستبين له — عند ذلك — أني قد صدقته ونصحت له ، والسلام »

كتاب الحجاج الى الجزل

أما بعد ، فقد أتاني كتابك ، وقرأته وفهمت كل ما ذكرت ، وقد صدقتك في كل ما وصفت به نفسك من نصيحتك لأميرك ، وحيطتك على أهل مصرك ، وشدتك على عدوك .

وقد فهمت ما ذكرت من أمر سعيد وعجلته إلى عدوه ، فقد رضيت عجلته وتؤدتك ، فأما عجلته فانها أفضت به الى الجنة ، وأما تؤدتك فانها لم تدع الفرصة إذا أمكنت ، وتركُ الفرصة — إذ لم تمكن — حزم .

وقد اصبت وأحسنت البلاء وأجرت ، وأنت عندي من أهل السمع والطاعة والنصيحة ، وقد أشخصت اليك « حيان بن أبجر » ليداويك ويعالج جراحتك ، وبعثت إليك بألفي درهم فأنفقها في حاجتك وما ينوبك والسلام »

بين شبيب وسويد بن عبد الرحمن

ورأى الحجاج أن يبعث سويد بن عبدالرحمن الى شبيب ليحاربه في الفي فارس مختارين ، وقد قال له الحجاج :—

« اذا خرجت الى شبيب فالقه ، واجعل ميمنة وميسرة ، ثم انزل اليه في الرجال ، فان استطرد لك فدعه ولا تتبعه »

***

أما شبيب فقد كان على عادته يذهب الى حيث يجد مجالا للفتك والنهب ويرحل عن كل مكان يستعصي عليه أو يمتنع دونه . فقد سار شبيب الى المدائن فوجد أهلها متحصنين فيها ولا سبيل اليهم ، فراح الى الكرخ ثم عبر دجلة . وما زال سويد ابن عبد الرحمن يطارده حتى قطع بيوت الكوفة الى الحيرة .

وما زال شبيب يفعل ذلك حتى اضجره وايأسه

ومما يؤثر عن شبيب ان اكثر الجيوش التي كانت تحاربه « كانت تذهب اليه — كما يقولون — وكأنما كانت تساق الى الموت »

وليس يتسع المقام للتفصيل والاسهاب في ذكر الوقائع التي شهدها شبيب فلنتجزيء بالقليل منها ما وجدنا الى الايجاز سبيلا

مصرع محمد بن موسى

كان عبدالملك قد ولي محمد بن موسي «سجستان» قالوا : « وكانت أخته تحت عبدالملك بن مروان » فلما مر بالكوفة ـ وبها الحجاج ـ قيل للحجاج : ـ «إن صار هذا الى «سجستان» مع نجدته وصهره لعبدالملك فلجأ اليه أحد ممن تطلب ـ منعك ـ منه»

قال : « فما الحيلة ؟ »

قيل : « تأتيه وتسلم عليه ، وتذكر نجدته وبأسه ، وأن شبيباً في طريقه وأنه قد أعياك وانك ترجو أن يريح الله منه على يده فيكون له ذكر ذلك وشهرته »

وقد رأي الحجاج في هذه النصيحة فرصة سانحة وانخدع بها محمد بن موسي وذهب لمحاربة شبيب وقد كتب اليه الحجاج : —

« انك عامل كل بلد مررت به ، وهذا شبيب في طريقك »

قالوا : فلما التقى بشبيب ارسل اليه : انك امرؤ مخدوع قد التقى بك الحجاج وانت جار لك حق ، فانطلق لما أمرت به ولك الله لا آذيتك»

ولكن محمد بن موسى أبى الا محاربته، وزين له الغرور ان شبيباً انما يتحامى لقاءه خشية من بأسه وقوته .

قالوا : فواقفه شبيب وأعاد اليه الرسول ، فأبى الا قتاله فدعا الى البراز، فبرز اليه «البطين» ثم «قعنب» ثم «سويد» فأبى إلا شبيباً »

فقالوا لشبيب : « قد رغب عنا اليك »فبرز اليه شبيب وقال له :

« إني انشدك الله في دمك فان لك جوارا « فأبى الا قتاله .

فقال له: — « اني قد علمت خداع الحجاج ، وانما اغترك وقى بك نفسه، وكأني بأصحابك قد اسلموك فصرعت مصرع اصحابك ، فاطعني فاني انفس بك عن الموت

فأبى محمد بن موسى الا قتاله

قالوا «فحمل عليه شبيب ، فضربه بعصا حديد فهشم بها رأسه ، فسقط ثم كفنه وابتاع ماغنموه من عسكره فبعث به الى أهله »

بين شبيب وعبدالرحمن بن الاشعث

« ولما رأى شبيب أنه لا يصيب لعبدالرحمن غرة ، جعل يخرج حتى اذا دنا منه رحل عن مكانه ونزل في أرض غليظة جدبة ، فيجيء عبدالرحمن فاذا بلغه ارتحل وهكذا حتى أحفى دوابهم ولقوا منه كل بلاء . »

هي رواية لا تتكاد تتغير فصولها ، ولا يكاد شبيب يغير تمثيل دوره فيها . تتألب عليه الجيوش بالغة ما بلغت من الكثرة فلا يقف أمامها وقفة حاسمة ولكنه يتنقل من مكان الى آخر مترقباً فرصة سانحة لمهاجمة تلك الجيوش الكبيرة أجزاء متفرقة بعد ان رأى من العبث مهاجمتها مجتمعة .

يبعث اليه الحجاج بجيوش — ملء السهل والجبل — فيطاولها شبيب ويبيتها الفينة بعد الفينة، فان كان قائدها حذرا عاد شبيب من حيث أتي وإلا هاجمها واشتبك معها في موقعة حاسمة تنتهي بهزيمة اعدائه ومحاربيه .

ولا معدى لمحاربه عن أحد أمرين ، أن يخندق على عسكره ولا يترك وسيلة من وسائل الحيطة إلا اتخذها ، أو ينفد صبره فيهاجمه في حيثما كان .

فان كانت الاولى فقد تمضي الايام والاسابيع بل والشهور بلا طائل . وإن كانت الاخرى فقد تعجل الهزيمة أو الهلاك لنفسه وجيشه جميعاً .

* * *

قالوا إن الحجاج دعا عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث فقال له :

« انتخب الناس واخرج في طلب هذا العدو . »

منشور الحجاج

وكتب الحجاج الى رجال جيشه المنشور التالي :—

« أما بعد ، فقد اعتدتم عادة الأذلاء ، ووليتم الدبر — يوم الزحف — وذلك دأب الكافرين ، وإني قد صفحت عنكم — مرة ، بعد مرة ومرة بعد مرة — وإني أقسم لكم بالله قسما صادقا ، لئن عدتم لذلك لأوقعن بكم إيقاعا أشد عليكم من هذا العدو الذي تهربون منه في بطون الأودية والشعاب وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواذ الجبال ، فخاف من له معقول على نفسه ولم يجعل عليها سبيلا ، وقد أعذر من أنذر

وقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

والسلام عليكم . »

* * *

وقد خرج عبدالرحمن بجيشه حتى مر بالمدائن فنزل بها يوما وليلة وتشرى أصحابه حوائجهم ، ثم ارتحلوا حتى وصلوا الى « الجزل بن سعيد »

نصيحة الجزل

فقال الجزل لعبدالرحمن :

« يا ابن عم : إنك تسير الى فرسان العرب وأبناء الحرب وأحلاس الخيل ، والله لكأنما خلقوا من ضلوعها ثم بنوا على ظهورها .

ثم هم أسد الأجم ، الفارس منهم أشد من مائة ، إن لم تبدأ به بدأ بك ، وإن هجهج أقدم . فإني قد قاتلتهم وبلوتهم ، فاذا أصحرت لهم انتصفوا مني ، وكان لهم الفضل علي ، واذا خندقت عليهم وقاتلتهم في مضيق نلت منهم بعض ما أحب ، وكان لي عليهم الظفر .

فلا تلقهم — وأنت تستطيع — إلا في تعبية أو في خندق »

في أثر شبيب

خرج عبدالرحمن بجيشه — بعد أن شكر الجزل على نصحيته القيمة — فلما دنا من شبيب ارتفع عنه شبيب إلى مكان آخر ، فخرج عبدالرحمن في طلبه حتي إذا كان على التخوم أقام وقال : —

« إنما هو في أرض الموصل فليقاتلوا عن بلادهم أو ليدعوه »

ولكن كتابا من الحجاج جاءه يقول : —

« أما بعد فاطلب شبيباً واسلك في أثره أين سلك حتى تدركه فتقتله أو تنفيه، فانما السلطان سلطان أمير المؤمنين والجند جنده والسلام . »

قالوا : « فخرج عبدالرحمن — حين قرأ كتاب الحجاج — في طلب شبيب فكان شبيب يدعه ، حتى إذا دنا منه بيته ، فيجده قد خندق على نفسه وحذر ، فيمضي ويدعه ، فيتبعه عبدالرحمن، فاذا بلغه أنه تحمل وأنه يسير أقبل في الخيل، فاذا انتهى اليه وجده قد صف الخيل والرجال وأدنى المرامية فلا يصيب له غرة، فيمضي ويدعه »

قالوا :«ولما رأى انه لا يصيب لعبدالرحمن غرة ولا يصل إليه جعل يخرج حتى اذا دنا منه عبد الرحمن في خيله فينزل على مسيرة عشرين فرسخا ثم يقيم في أرض غليظة جدبة ، فيجيء عبدالرحمن فاذا دنا من شبيب ارتحل »

وما زال شبيب يعذبهم حتى شق عليهم وأحفى دوابهم ولقوا منه كل بلاء

ولما التقى الجيشان في «جوخا» أرسل شبيب الى عبدالرحمن :

« إن هذه الايام أيام عيد لنا ولكم ، فان رأيتم أن توادعونا حتى تمضي هذه الايام فافعلوا » فرضي بذلك عبدالرحمن .

قالوا : « ولم يكن شيء أحب الى عبدالرحمن من المطاولة والموادعة »

من عثمان بن قَطن الى الحجاج

« أما بعد ، فاني أخبر الأمير — أصلحه الله — أن عبد الرحمن بن محمد قد حفر « جوخا » كلها خندقاً واحداً ، وخلى شبيبا وكسر خراجها ، وهو يأكل أهلها والسلام »

من الحجاج الى عثمان بن قطن

« أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت لي عن عبدالرحمن ، وقد لعمري فعل

ما ذكرت ، فسر الى الناس فأنت أميرهم ، وعاجل المارقة حتى تلقاهم ، فان الله ناصرك عليهم والسلام »

بين عثمان بن قطن وشبيب

وهكذا ظفر عثمان بامارة الجيش وبعث الحجاج الى المدائن مكانه « مطرف ابن المغيرة » وحسب عثمان أنه أقدر من عبدالرحمن على قتل شبيب وهزيمة جيشه وأظهر من الحماسة مثلما رأيناه من « سعيد بن مجالد » الذي كان سبباً في هزيمة جيش «الجزل» وهلاك نفسه . وقدكانت عاقبة عثمان كعاقبة سعيد بن مجالد [1] ، وحاق به البوار وحلت الهزيمة بالجيش .

فقد ذهب عثمان متحمساً يريد مناجزة الخوارج ـ في الحال ـ وألح عليه الناس أن يتريث قليلا — وكان الجو عاصفاً والرياح شديدة تهب على الجيش فأقام يوما وليلة حتى اذا انتهت العاصفة عبي جيشه وزحف على شبيب وثبت وجيشه أمامه قليلا ، ثم كر عليه شبيب وأصحابه فقتلوه وهزموا أصحابه ، وتشتت شمل الجيش بعد أن انهزم عبدالرحمن بن الاشعث — فيمن انهزم — وغنم شبيب من هذه الموقعة اكبر الغنائم ، وزاد جيشه وأقبل عليه كثيرون من الناقمين على الحجاج والراغبين في المغانم وقوى شأنه .

ورأى الحجاج أن أمر شبيب قد استفحل وأن توالي انتصاراته يضاعف أعوانه ويفت في عضد محاربيه . فأعد جيشاً كبيراً مختاراً من صفوة الرجال وأفذاذ القواد وجعل على رأس ذلك الجيش عتاب بن ورقاء .

---

(١) ارجع الى ص « ٧٠ » من هذا الكتاب

عتاب بن ورقاء

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتاب ابن ورقاء بأجمعكم، لا أرخص لأحد من الناس في الاقامة إلا رجلا قد وليناه من أعمالنا ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والاثرة ألا إن للناكل الهارب الهوان والجفوة، والذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطن — كفعلكم في المواطن التي كانت — لأولينكم كنفا خشنا ولأعركنكم بكلكل ثقيل »

« من خطبة للحجاج »

كان الحجاج قد أمر عتابا بطاعة المهلب، فكبر ذلك على عتاب، ووقع بينه وبين المهلب شر كبير، حتى كتب عتاب الى الحجاج يستعفيه من ذلك ويضمه اليه، وقد أحضره الحجاج ووجهه لمحاربة شبيب على رأس ذلك الجيش

وقد اختاره الحجاج بعد أن رأى توالي انتصارات شبيب.

قالوا : —

وقام الحجاج في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: —

« أيها الناس : والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم، أو لأبعثن الى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على اللأواء والقيظ منكم، فيقاتلون عدوكم، ويأكلون فيأكم »

قالوا : فقام اليه الناس من كل جانب فقالوا : —

« نحن نقاتلهم ونُعتب الامير، فليندبنا الامير اليهم فانا حيث سره. »

نصيحة زهرة بن حَوية

وقام اليه زهرة بن حَوِيّة، قالوا : وهو شيخ كبير لا يستقيم قائما حتى يؤخذ بيده، فقال : —

« أصلح الله الامير. إنك انما تبعث اليهم الناس متقطعين، فاستنفر الناس

اليهم كافة ، وابعث عليهم رجلا ثبتا شجاعا مجربا للحرب ، ممن يرى الفرار هضما وعاراً ، والصبر مجداً وكرماً . »

فقال الحجاج :—

« فأنت ذاك فاخرج »

فقال :—

« أصلح الله الامير ، انما يصلح للناس — في هـذا — رجل يحمل الرمح والدرع ويهز السيف ويثبت على متن الفرس . وأنا لا أطيق من هذا شيئاً ، وقد ضعف بصري وضعفت .

ولكن أخرجني في الناس مع الأمير ، فاني انما أثبت على الراحلة، فأكون مع الأمير في عسكره وأشير عليه برأيي »

فقال له الحجاج :—

« جزاك الله عن الاسلام وأهله — في أول الاسلام — خيراً ، وجزاك الله عن الاسلام وأهله— في آخر الاسلام — خيراً ، فقد نصحت وصدقت ، أنامخرج الناس كافة » ثم دعا الحجاج — بعد أن اختار عتاب بن ورقاء أشراف الكوفة وفيهم زهرة بن حوية — فقال لهم :

« من ترون أن أبعث على هذا الجيش ؟ »

فقالوا :—

« رأيك أيها الامير أفضل »

قال : —

«فاني قد بعثت إلى عتاب بن ورقاء ، وهو قادم عليكم الليلة أو القابلة ، فيكون هو الذي يسير في الناس »

قال زهرة بن حوية :—

« أصلح الله الأمير ، رميتهم بحجرهم ، لا والله لا يرجع إليك حتى يظفر أو يقتل ! »

قبيل المعركة

ولما التقى شبيب بعتاب ، وتأهب جيشاهما للحرب ، أخذ عتاب يحمس جنوده وينظم صفوفهم،وقد ذكر بعض جنوده شيئاً مما فاه به عتاب قبيل المعركة فقال :—

وقف علينا عتاب فقص علينا قصصاً كثيراً ، كان مما حفظت منه ثلاث كلمات قال « يا أهل الاسلام ، ان أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا ترون أنه يقول« اصبروا ان الله مع الصابرين»

فمن حمدالله فعله فما أعظم درجته ، وليس الله لأحد أمقت منه لاهل البغي.

ألا ترون أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه — لا يرون الا ذلك قربة عندالله ، فهم شرار أهل الارض وكلاب أهل النار ! »

ثم قال —

« أين القصاص ؟ »

قال ذلك فلم يجبه — والله منا أحد .

فلما رأى ذلك قال —

« أين من يروي شعر عنترة ؟ »

فلا والله مارد عليه انسان كلمة .

***

وهكذا عقد الخوف ألسنتهم وقلوبهم فلم يجيبوا قائدهم بشيء ، وثمة أدرك عتاب أنهم لا بد خاذلوه ، ولكن ماذا يصنع وليس أمامه الا أن يستميت في قتاله حتى ينتصر أو يقتل . وقد كانت الثانية .

مصرع عتاب

« هذا يوم كثر فيه العدد وقل الغناء ! والهفى على خمسمائة فارس—من نحو رجال تميم معي —من جميع الناس ! » « عتاب»

وقد بدأت المعركة شديدة حامية الوطيس[١] وحمل عليهم شبيب وهو يقول :—

(١) بدأت المعركة بين المغرب والعشاء حين أضاء القمر

« أنا أبو المدله ، لا حكم إلا الحكم ، اثبتوا إن شئتم »

فأدخل الرعب في قلوب الكثيرين واستبسل جماعة من اصحاب عتاب حتى قيل لهم : — « مات عتاب » فتفرقوا .

« قالوا : — ولم يزل عتاب جالسا على طنفسه في القلب — وزهرة بن حوية معه — إذ غشيهم شبيب ، فقال له عتاب :

« هذا يوم كثر فيه العدد ، وقل فيه الغناء ! والهفى علي خمسمائة فارس — من نحو رجال تميم — معى من جميع الناس ! »

وقد ظل عتاب ينادي جنوده :—

« ألا صابر لعدوه ؟ ألا مؤاس بنفسه » ولكن :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

فقد انفض من حوله الجند وتركوه وهو يقاتل قتال الابطال

وماذا تجدى الشجاعة بعد أن خذله ناصروه ؟

على أن زهرة بن حوية كان له خير رفيق وكان إلى جانبه مثلا من أمثلة البسالة العجيبة والاستهانة بالموت ، فقال له زهرة :

« أحسنت يا عتاب فعلت فعل مثلك ، والله والله لو منحتهم كتفك ما كان بقاؤك إلا قليلا ، أبشر فاني أرجو أن يكون الله قد أهدى الينا الشهادة عند فناء أعمارنا . »

فقال له عتاب :—

« جزاك الله خير ما جزى امرأ لمعروف »

وقال له أحد أصحابه : —

« إن عبد الرحمن بن محمد قد هرب عنك فانصفق معه أناس كثير »

فقال عتاب :—

« قد هرب قبل اليوم وما رأيت ذلك الفتى يبالي ما صنع ! »

كيف صرع عتاب

وقد قاتلهم عتاب ساعة — وهو يقول :—

« ما رأيت كاليوم قط موطنا — لم أبتل بمثله قط — أقل مقاتلا ولا اكثر هاربا خاذلا ! »

وما زال يقاتل حتى علم شبيب مكانه ، فحمل عليه فطعنه فوقع .

مصرع زهرة بن حوية

أما زهرة بن حوية فقد وطئته الخيل ، فأخذ يذب بسيفه — وهو شيخ كبير لا يستطيع أن يقوم — فجاءه الفضل بن عامر الشيباني فقتله [١] وهكذا تمت هزيمة الجيش ، وانتصر شبيب واصحابه أبهر انتصار .

خروج شبيب الى الكوفة

وكأن شبيبا لم يكتف بما أحرزه من انتصارات باهرة فتطلعت نفسه إلى الفوز الأكبر والاستيلاء على الكوفة نفسها ، فسار شبيب حتى قطع الجسر وعسكر دونه الى الكوفة .

الحجاج يشاور أصحابه

قال شاهد عيان :—

لما فض شبيب كتائب الحجاج أذن لنا فدخلنا عليه في مجلسه الذي يبيت فيه — وهو على سرير وعليه لحاف — فقال :

« إني دعوتكم لأمر فيه أمان ونظر ، فأشيروا علي،إن هذا الرجل قد تبحبح بجبوبحتكم ودخل حريمكم وقتل مقاتلكم فأشيروا علي . »

---

(١) وقد تألم شبيب لمصرع زهرة بن حوية وبات يتوجع له ، وقد قال شبيب حين رآه صريعا :—

« أما والله لئن كنت قتلت على ضلالة لرب يوم من أيام المسلمين قدحسن فيه بلاؤك وعظم فيه غناؤك ولرب خيل للمشركين قد هزمتها وسرية لهم قد أغرتها وقرية من قراهم — جم أهلها — قدافتتحتها، ثم كان في علم الله أن تقتل ناصر الظالمين. »

فاطرقوا ، وفصل رجل من الصف بكرسيه فقال :—

« إن أذن لي الامير تكلمت »

فقال : « تكلم »

فقال : « إن الامير — والله — ما راقب الله قط ، ولا حفظ أمير المؤمنين ، ولا نصح للرعية »

ثم جلس بكرسيه في الصف — وإذا هو قتيبة — فغضب الحجاج وألقى اللحاف ودلى قدميه من السرير — كأني أنظر اليهما — فقال :

« من المتكلم ؟ »

فخرج قتيبه بكرسيه من الصف فأعاد الكلام ، قال الحجاج :

« فكيف ذلك ؟ »

فقال : « تبعث الرجل الشريف ، وتبعث معه رعاعا من الناس فينهزمون عنه ، ويستحيا فيقاتل حتى يقتل. »

قال : « فما الرأي ؟ »

قال : « أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك فيواسونك بأنفسهم »

قال بعضهم : « فلعنه الحجاج » وقال آخر : « وخنقه الحجاج بعمامته خنقا شديداً » ثم قال الحجاج : « والله لأبرزن له غدا »

وهكذا أحرج الحجاج في قتال شبيب احراجا .

بين شبيب والحجاج

فلما جاء اليوم التالي فرق الحجاج كثيرا من رجال جيشه على أفواه السكك ، ثم أقبل الحجاج — وقد رأى أمامه جيش شبيب — وكان شبيب في ستمائة فارس .

ودعا الحجاج بكرسي له فقعد عليه ، ثم نادى : —

« يا أهل الشام : أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين ، لا يغلبن باطل

هؤلاء الأرجاس حقكم ، غضوا الابصار واجثو على الركب واستقبلواالقوم بأطراف الأسنة .»

فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكأنهم حرة سوداء

وأقبل شبيب حتى إذا دنا منهم عبي أصحابه ثلاثة كراديس :

(١) كتيبة مع سويد بن سليم

(٢) وكتيبة مع المحلل بن وائل .

(٣) وكتيبة مع شبيب

فشل الكتيبة الاولى

فأمر شبيب الكتيبة الأولى أن تحمل عليهم ، فحمل عليهم سويد فثبتوا له ، حتى اذا غشى أطراف الاسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه ، فطعنوهم قُدما حتي انصرف .

وصاح الحجاج :—

« يا أهل السمع والطاعة هكذا فافعلوا . قدم كرسيّ يا غلام . »

فشل الكتيبة الثانية

وأمر شبيب قائد الكتيبة الثانية « المحلل بن وائل » أن يحمل ، فكان نصيبه من الفشل مثل ما مني به سلفه .

فشل الكتيبة الثالثة

فلما رأى شبيب فشل سابقيه ، حمل على أعدائه في كتيبته فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف الرماح وثبوا في وجهه فقاتلهم طويلا ، ثم إن أهل الشام طعنوه قدما حتى ألحقوه بأصحابه .

الهزيمة الشاملة

فلما رأي شبيب هذا الفشل قال لأصحابه :—

« إنما شرينا الله ، ومن شري الله لم يكن يكبر عليه ما أصابه من الأذى والألم في جنب الله . الصبر الصبر ، شدة كشداتكم في مواطنكم الكريمة

ثم جمع أصحابه فلما ظن الحجاج أنه حامل عليهم قال لأصحابه: —

« يا أهل السمع والطاعة : اصبروا لهذه الشدة الواحدة ، ثم ورب السماء ماشيء دون الفتح » فجثوا على الركب ، وحمل شبيب — بجميع اصحابه — فلما غشيهم نادى الحجاج بجماعة الناس فوثبوا في وجهه ، فما زالوا يطعنون ويضربون وهم مستميتون في القتال .

قالوا : « وخرج خالد بن عتاب بن ورقاء » الذي وتره شبيب ، فسار في عصابة من أهل الكوفة حتى دخل عسكرهم من ورائهم فقتل « مصادا » أخا شبيب وقتلت غزالة امرأته وحرق خالد في عسكر شبيب .

فكبر الحجاج وأصحابه تكبيرة واحدة ، وفت في أعضاد شبيب واصحابه ، وقال الحجاج لاهل الشام :

« شدوا عليهم فانهم قد اتاهم ما أرعب قلوبهم » فشدوا عليهم فهزموهم

قالوا :

ثم أن الحجاج دخل الكوفة حين انهزم شبيب ثم صعد المنبر فقال : —

« والله ما قوتل شبيب قط قبلها مثلها ! ولي — الله — هاربا وترك امرأته يكسر في استها القصب ! »

المعركة الاخيرة

ذهب شبيب الى الاهواز ثم الى فارس ثم ارتفع الى كرمان ، وكان الحجاج قد أمر سفيان ابن الابرد أن يسير اليه فلحقه بالاهواز (بجسر دجيل) وانضم اليه زياد ابن عمر العتكي في أربعة آلاف .

ثم نشبت المعركة عنيفة وأظهر فيها شبيب من ضروب البسالة والاقدام والافتنان في الحرب ما بهر أعداءه وحير ألبابهم. قال السكسكي :

فلما رأى سفيان أنه لا يقدر عليهم ولا يأمن — مع ذلك — ظفرهم، دعا الرماة فقال : « ارشقوهم بالنبل »

وذلك عند المساء — وكان التقاؤهم نصف النهار — فرماهم حينئذ أصحاب النبل بالنبل . فلما رشقوهم بالنبل ساعة شدوا عليهم .

فلما شدوا على رماتنا شددنا عليهم فشغلناهم عنهم ، فكر شبيب وأصحابه على اصحاب النبل كرة صرع منهم اكثر من ثلاثين رجلا

ثم عطف بخيله علينا فطاعناه حتى اتى المساء ثم انصرف عنا .

فقال سفيان لأصحابه:

« أيها الناس دعوهم لا تتبعوهم حتى نصبحهم غدوة »

فكففنا عنهم وليس شيء أحب الينا من ان ينصرفوا عنا

فانظر الى عبارة السكسكي الاخيرة التي تعبر عن شعور الجيش كله وبغضه قتال شبيب واصحابه!

***

ولما انتهت المعركة أمر «شبيب» أصحابه أن يعبروا جسر « دجيل» حتى إذا أصبحوا باكروا أعداءهم، فعبروا أمامه وتخلف في آخرهم .

كيف صرع شبيب

قالوا : —

« فأقبل شبيب على فرسه — وكانت بين يديه فرس أنثى فنزا عليها فرسه وهو على الجسر فاضطربت أمامه ونزل حافر فرسه على حرف السفينة فسقط في الماء وسقط معه شبيب — وهو مثقل بالحديد من درع ومغفر وغيرهما — فقال :—

«ليقضي الله أمراً كان مفعولا»

وارتمس في الماء ثم ارتفع ، فقال له بعض أصحابه — وهو يغرق : —

«أغرقا ياأمير المؤمنين؟ »

فقال :— « ذلك تقدير العزيز العليم . »

* * *

ثم غرق شبيب وتنادى أصحابه :— « غرق أمير المؤمنين »
وانصرفوا راجعين وتركوا عسكرهم ليس فيه أحد .
قالوا :—
« فكبر سفيان وأصحابه ، ولما أصبح الصبح طلبوا شبيباً حتى استخرجوه .

امثلة من شجاعة شبيب

قال شبيب :

قتلت أمس «من الاعداء» رجلين،أحدهما أجبن الناس والآخر اشجع الناس
خرجت — عشية أمس — طليعة لكم ، فلقيت ثلاثة نفر دخلوا قرية يشترون منها حوائجكم .
فاشترى أحدهما حاجته ثم خرج قبل أصحابه — وخرجت معه — فقال:—
« كأنك لم تشتر علفاً ؟ »
فقلت:— « ان لي رفقاء قد كفوني ذلك »
ثم قلت له :—
« أين ترى عدونا هذا نزل ؟ »
قال :— «بلغني انه قد نزل منا قريباً،وايم الله لوددت أني قد لقيت شبيبهم هذا»
قلت :— « فتحب ذلك ؟ »
قال :— «نعم»
قلت :— « فخذ حذرك ، فانا والله شبيب »
وانتضيت سيفي ، فخر — والله — ميتا .
فقلت له:— « ارتفع ويحك ! »

وذهبت أنظر ، فاذا هو قد مات ، فانصرفت راجعاً .

***

ولقيت الآخر خارجا من القرية فقال —

« أين تذهب هذه الساعة ، وانما يرجع الناس الى عسكرهم ؟ »

فلم أكلمه ، ومضيت يقرب بي فرسي — واتبعني حتى لحقني ، فقطعت عليه ، فقلت له: ـ «مالك»

فقال ـ أنت والله من عدونا ! »

فقلت ـ « أجل والله ! »

فقال ـ « والله لا تبرح حتى تقتلني أو أقتلك »

فحملت عليه وحمل علي ، فاضطربنا بسيفنا ساعة فوالله ما فضلته ـ في شدة نفس ولا إقدام ـ إلا أن سيفي كان أقطع من سيفه فقتلته » ا.ه

***

وما نحسب القارىء في حاجة الى أن نسهب في التعليق على هـذا الخبر ، فهو وحده غني عن كل تعليق .

فقد كان اسم شبيب وحده كافياً للقضاء على فارس محارب ، وما نظن الفارس الآخر الذي وصفه شبيب بالشجاعة كان يستطيع أن يثبت أمامه لو علم أنه يواجه شبيباً الذي كان يكفي اسمه في ترويع الجيوش الجرارة وهزيمتهم ـ بالغاً ما بلغ عددهم ـ وقد بغت الفارس الاول حين علم أن مخاطبه هو شبيب الذي هزم الجيوش وقتل أفذاذ القواد وأذكى الرعب في كل نفس ، وأقلق بال الحجاج وذعره وأقض عليه مضجعه ، والحجاج ـ هو من يعرف القارىء ـ جبار العراق ومدوخ جبابرته وثائريه .

وما نحسب الحجاج كان قادراً على هزيمة شبيب لو لم يستعن بجند الشام الذي لم تروعه فتكات شبيب وشداته العنيفة التي روّعت جيوش الكوفة وخلعت قلوبهم فأصبحوا ـ يلقونه كارهين وكأنهم يلقون الموت أمامهم ـ وصاروا لا يثبتون أمامه الا ريثما يلوذون بأكناف الفرار .

وما كان الحجاج يخرج لمحاربة شبيب الا محرجا مضطراً . وقد رأى الحجاج مجده يترجح في كفة الاقدار، وأحس أن هزيمته أمام شبيب معناها اندحاره وضياع هيبته . فألهب قلوب الجند حماسة ولم يدخر وسيلة من وسائل التشجيع واستثارة الحمية والنخوة الا سلكها، وقد اعانه خالد بن عتاب الذي قتل شبيب أباه «عتاب ابن ورقاء» البطل الكمي المنقطع النظير ـ فقد قتل خالد أخا شبيب وزوجه أثناء اشتغال شبيب بمحاربة الحجاج وجيشه ، ففت ذلك في عضد شبيب، وكان من أسباب هزيمته .

على ان الحجاج لم يستطع أن يظهر مكانه أمام شبيب فتوارى عن عينه وأجلس مكانه فارساً آخر ، لم يفت شبيباً أن يضربه بعمود من الحديد فيقتله ـ ظانا أنه أنما يقتل الحجاج

فلما انهزم جيش شبيب ، لم يعبأ شبيب بشيء بل خرج شبيب وتبعه خيل الحجاج وهو لا يكترث بهم

قال أحد أصحابه :

فجعل شبيب يخفق برأسه، فقلت له ـ

« يا أمير المؤمنين التفت فانظر من خلفك » فالتفت شبيب غير مكترث ، ثم أكب يخفق برأسه ، ودنوا منا ، فقلنا ـ

« يا أمير المؤمنين قد دنوا منك »

فالتفت ـ والله ـ غير مكترث ثم جعل يخفق برأسه

وقد هابه جند الاعداء، فلم يجرأ على قتله أحد منهم ـ والفرصة سانحة تناديهم ـ وهم يتهيبون الدنو منه .

فلما أفلتت منهم الفرصة راحوا يتعقبونه بعد فوات الوقت .

* * *

وانظر إلى ابن الاشعث يسأله شبيب أن يوادعه في ايام العيد « فلا يكون شيء أحب الى عبدالرحمن من المطاولة والموادعة » كما يقولون

ويشتبك شبيب — ومعه ثلاثون شخصاً — مع جيش كبير جداً فيصمد

صمود الابطال حتى يضطر قائد الجيش الى أن يقول :

« لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة رجل لأهلكونا »

* * *

وقد رأى القارىء كيف كان اسم شبيب وحده كافياً في ذعر الجيش الكثير العدد ، وكيف كان عتاب بن ورقاء يحمس جيشه ويستنفرهم لمهاجمة شبيب ، ويبذل جهده في الهاب قلوبهم فلا يصل الى ذلك ولا يرى أمامه إلا خوراً او هلعا من لقاء شبيب

ينادي : اين القصاص فلا يجيبه أحد ، وينادي : أين من يروي شعر عنترة ؟ « فلا والله ما يرد عليه انسان كلمة » فيعلم عتاب انهم خاذلوه ويفت ذلك في عضده وهو البطل الكمي العظيم الخطر

* * *

ومن الامثلة الدالة على حزم شبيب تظاهره بالزهد في المال خوفا على الجند ان يفتتنوا به فيعوقهم ذلك عن الاستماتة في الجهاد .

قالوا : ان شبيب حين وجه من يأتيه برأس عامل «سورا» جاءوا برأسه فقال لهم شبيب : « ماذا اتيتمونا به ؟ »

فقالوا . — « جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال » — والمال على دابة في بدوره — فقال شبيب : « أتيتمونا بفتنة المسلمين ! هلم الحربة يا غلام فخرق بها البدر »

قالوا : وأمر فنخس بالدابة والمال يتناثر من بدوره حتى وردت « الصراة »

فقال : — «إن كان بقي شيء فاقذفه في الماء »

لقد خشي شبيب ان يشتغل اصحابه بالمال فيفتتنوا به وينسو واجبهم الاول الذي يستميتون في سبيل تحقيقه

وقد أذاع العامة كثيراً من المزاعم التي لا تخفى دلالتها على تهيبهم له واكبارهم لشجاعته الخارقة إكباراً جعلهم يتفننون في نسبة المعجزات اليه . والعامة لا يكادون يتمثلون المزايا المعنوية الا في قالب مادي ملموس . لذلك راحوا يروجون إن شبيباً

حين أخرج من الماء وشق بطنه وأخرج قلبه وجدوه مجتمعاً صلباً كأنه صخرة ،وانه كان يضرب به الارض فيثب قامة انسان . لان العامة لم يستطيعوا أن يتصوروا مثل هذه الشجاعة الخارقة التي امتاز بها شبيب في قلب كقلب الاناسي

ولو ان شبيباً لم يمت غرقاً و لو انه كان من أنصار الخليفة لـكان للتاريخ شأن آخر — في كلتا الحالين — وان كان في إحداهما يناقض الاخرى مناقضة تامة .

***

ولقد نعي شبيب لأمه فلم تصدق ، وكانوا يقولون لها « قتل شبيب » فلا تقبل .

فلما قيل لها : انه غرق صدقت كلامهم وقالت :

أما الآن فقد صدقت ما تقولون، ثم قصت عليهم حلماً كانت رأته حين ولدته، فقد رأت انه خرج قُبلها شهاب نار ثاقب ما زال حتى بلغ السماء وبلغ الآفاق كلها

قالت أم شبب :

« فبينما هو كذلك اذ وقع في ماء كثير حار فخبا [١] »

فاذا صحت هذه الرواية فان هذه الرؤيا تعد من اصدق الاحلام ، وربما كانت من أسباب هذا الاقدام العجيب الذي عرفناه من شبيب في الحروب وتلك الثقة المدهشة التي امتلأ بها قلبه ، وربما كانت هذه الرؤيا أيضاً سبباً في استسلامه للموت غرقاً ، ذلك الاستسلام الذي نراه في قوله حين صاح به أحد اتباعه ـ وهو يغرق :ـ

« أغرقاً يا أمير المؤمنين ؟ »

فقال شبيب مستسلماً .—

« ذلك تقدير العزيز العليم ! »

وهكذا طويت صفحة خالدة من صفحات البطولة والاقدام ، وانتهت حياة طالما هزئت بالموت وروعت الجيوش ودوخت الابطال .

---

(١) وكانت أم شبيب قد ولدته في عيد الاضحى ، قالت

«وقد ولدته في يومكم هذا الذي يهريقون فيه الدماء واني قد أولت رؤياي هذه أني ارى ولدي هذا غلاماً أراه سيكون صاحب دماء يهريقها واني أرى امره سيعلو ويعظم سريعاً .»

مصارع الخوارج

(٣) مصرع قطري بن الفجاءة

(١) كيف صرع

«ورأى علج من أهل البلد «قطريا» حين تدهدى من الشعب ، فقال له قطري: «اسقني من الماء» — وكان قد اشتد به العطش — فقال له : «اعطني شيئاً حتى اسقيك» فقال : «ويحك ، والله ما معي إلا ما ترى من سلاحي ، فأنا مؤتيكه اذا أتيتني بماء»
قال : «لا ، بل اعطنيه الآن»

قال : «لا ، ولكن ائتني بماء»

فانطلق العلج حتى أشرف على قطري ، ثم حدر عليه حجراً عظيماً من فوقه دهدأه عليه فأصاب احدى وركيه فأوهنته ، وصاح بالناس فأقبلوا نحوه — والعلج حينئذ لا يعرف قطريا غير أنه يظن أنه من اشرافهم لحسن هيئته وكمال سلاحه ، فدفع اليه نفر من اهل الكوفة فابتدروه فقتلوه واتوا برأسه الى الحجاج .»

(٢) مقدمات المصرع

لما تشتت شمل الازارقه بسبب الخلاف الذي دب بينهم بعد حروبهم الطويلة مع المهلب انضم بعض الازارقه الى قطري بن الفجاءة وانضم آخرون الى عبد ربه الكبير (١)

قالوا وتوجه قطري يريد «طبرستان» وبلغ أمره الحجاج فوجه اليه سفيان ابن الابرد ومعه جيش كبير من أهل الشام حتى لحقه في شعب من شعاب طبرستان فتقاتلوه قتالا شديداً انتهى بتفرق أصحاب قطري عنه قالوا: ووقع عن دابته في اسفل الشعب

---

(١) يذكر الطبري دائما ان اسمه عبد رب الكبير وهي تسمية صحيحة لاغبار عليها ولك أن تذكره بأحد الاسمين

فتدهدى حتى خر الى أسفله، فقال معاوية بن محصن الكندي: « رأيته حيث هوى ولم أعرفه ونظرت الى خمس عشرة امرأة عربية هن في الجمال وحسن الهيئة كما شاء ربك ماعدا عجوزاً فيهن، فصرفتهن الى سفيان بن الابرد فلما دنوت بهن منه انتحت لي بسيفها العجوز فضربت به عنقي فقطعت المغفر وقطعت جلدة من حلقي، فضربتها بالسيف فأصاب قحف رأسها فوقعت ميتة وأقبلت بالفتيات حتى دفعتهن الى سفيان وإنه ليضحك من العجوز وقال. ما أرادت أخزاها الله؟ فقلت او ما رأيت أصلحك الله ضربتها اياي والله ان كادت لتقتلني؟ قال: قد رأيت فوالله ما ألومك على فعلك قال ورأيت قطرياً حيث تنهدى من الشعب وقد جاءه علج من أهل البلد فقال له قطري: اسقني ماء وقد كان اشتد عطشه فقال أعطني شيئاً حتى اسقيك فقال ويحك والله مامعي الامانرى من سلاحي فأنا مؤتيكه اذا أتيتني بماء قال لا بل اعطنيه الآن قال لا ولكن ائتني بماء قبل. فانطلق العلج حتى اشرف على قطري ثم حدر عليه حجراً عظيما من فوقه دهدأه عليه فأصاب احدى وركيه فأوهنته، وصاح بالناس فأقبلوا نحوه والعلج حينئذ لا يعرف قطريا غير انه يظن انه من اشرافهم لحسن هيئته وكمال سلاحه فدفع اليه نفر من أهل الكوفة فابتدروه فقتلوه .

(٣) اسباب الخلاف

قلنا في مقدمة مصرع قطري - ان الخلاف قد وقع بين الازارقة فانضم قوم اليه وانضم آخرون الى عبد ربه الكبير فما سبب هذا الخلاف ؟

قالوا: إن المهلب بعد قتاله الطويل مع الخوارج من غيران ينال منهم أو ينالوا منه قتل عاملٍ لقطرى على ناحية من كرمان يقال له: «المقعطر الضبي» رجلا من الخوارج كان ذا بأس وكان كريماً عليهم فجاءوا الى قطري يسألونه انه يسلم اليهم الضبي ليقتلوه فأبى، فأنكروا عليه ذلك، وكان رجل من الازارقة حداد يسمى أبزى يعمل لهم نصالا مسمومة فيرمون بها اصحاب المهلب، فشكوا اليه ذلك، فقال لهم سأكفيكوه ان شاء الله، ثم وجه رجلا من اصحابه الى أبزى بألف درهم ومعه كتاب نصه بعد

الديباجة : أما بعد فأن نصالك قد وصلت الي وقد وجهت اليك بألف درهم فاقبضها . وقال للرجل الق هذا الكتاب والدراهم في عسكر قطري واحذر على نفسك، فوقع الكتاب والدراهم الى قطري فدعا بأبزى فقال ماهذا الكتاب ؟

قال لا أدري قال فهذه الدراهم قال ما أعلم علمها فأمر به فقتل، فجاء عبد ربه الكبير فقال له اقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تبين؟ فقال له : ماحال هذه الدراهم؟ قال يجوز أن يكون أمرها كذبا ويجوز ان يكون حقاً فقال له قطري قتل رجل في صلاح الناس غير منكر وللامام ان يحكم بما يراه صلاحاً وليس للرعية ان تعترض عليه فتنكر له عبد ربه وجماعة ولكنهم لم يفارقوه

فلما بلغ ذلك المهلب دس الى قطري رجلا نصرانياً وقال له اذا رأيته فاسجد له فاذا نهاك فقل : انما سجدت لك، ففعل النصراني ذلك فقال قطري انما السجود لله فقال ما سجدت الا لك فقال له رجل من الخوارج قد عبدك من دون الله وتلا قوله تعالى « انكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنم انتم لها واردون » فقال قطري ان النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم فما ضر ذلك عيسى شيئاً فقام رجل من الخوارج الى النصراني فقتله فأنكر قطري عليه ذلك وقال : اقلتت ذمياً ؟ فكان ذلك مما قوى الاختلاف بين الخوارج، وبلغ المهلب فوجه اليهم رجلاً يسألهم عن رجلين خرجا مهاجرين إليهم ، فمات احدهما في الطريق ووصل اليهم الآخر، فامتحنوه في عقيدتهم فلم يؤمن بها فقتلوه ، فقال بعضهم اما الميت فمؤمن من أهل الجنة واما الآخر فكافر وقال آخرون بل هما كافران فاشتد الخلاف بينهم فثاروا على قطري وخلعوه وولوا عليهم عبد ربه الكبير، وبقي مع قطري عصابة قليله منهم ووقع القتال بينهم نحو شهر

(٤) حزم المهلب

ولما علم المهلب خبر تفرقهم كف عن محاربتهم وألح عليه الحجاج في كتبه ان يناهضهم ولكن المهلب لجأ الى الحزم والحكمة، ورد على الحجاج بقوله ان الرأي ان

نتركهم يقتل بعضهم بعضاً فأن في ذلك هلاكهم او اضعافهم وليس من الرأي ان تناهضهم لئلا يتفقوا علينا .

ولما اشتد الحاح الحجاج على المهلب اعاد الكرة عليهم ثم حاربهم حتى قهرهم فاختلفت كلمتهم مرة أخرى .

(٥) سبب الخلاف

قالوا وكان سبب خلافهم ان عبيدة بن هلال كان يختلف الى امرأة رجل حداد في بيته ويدخل عليها بغير اذن فشكوه الى قطري فقال لهم ان عبيدة من الدين بحيث علمتم ومن الجهاد بحيث رأيتم. فقالوا إنا لا نقاره على الفاحشة فبعث اليه قطري فقام فيهم وقال بسم الله الرحمن الرحيم ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم الآيات . فبكوا واعتنقوه وقالوا استغفر لنا فقال لهم عبد ربه الكبير : لقد خدعكم فرجعوا الى اعتقادهم الاول ولكنهم لم يجدوا سبيلا الى اقامة الحد عليه وكان قطري قد استعمل رجلا من الدهاقين :

فظهرت له أحوال كثيرة فقالوا لقطري ان عمر بن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا ، فقال قطري اني استعملته وله ضياع وتجارات. فأوغر ذلك صدورهم وقالوا له الا تخرج بنا الى عدونا فقال لا ثم خرج فقالوا : كذب وارتد فاتبعوه يوماً فأحس بالشر منهم فدخل داراً مع جماعة من أصحابه فصاحوا به يا دابة اخرج الينا فخرج اليهم وقال رجعتم بعدي كفاراً؟ فقالوا اما انت فأنك دابة قال الله تعالى «وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها» واما نحن قلسنا كفاراً فأنت كافر بتكفيرك ايانا، فقال له بعض أصحابه قل لهم اني استفهمت ولم اخبر فقبلوه منه ولما رأى منهم هذا التغير بايع المقعطر العبدي فكرهت الخوارج ذلك وسألوه اعفاءهم من مبايعة المقعطر فأبى فاختلفوا وتهايجوا وحمل فتى من العرب على صالح بن مخراق فقتله ثم اقتتلوا فيما بينهم قتالا شديداً وارتحل قطري مع اتباعه الى طبرستان .

وجلس المهلب للناس بعد ارتحال قطري فدخل إليه وجوههم

٭٭٭

ولعل القارىء يرى من هذه الأمثلة ولع الخوارج بالتمسك بالمجادلات اللفظية الفارغة، والجدال فيما لاطائل تحته، وهذه ظاهرة تبدو لكل من يقرأ تاريخ الخوارج، وحسبك ان تعلم كيف خرجوا على علي بن ابي طالب متمحلين اوهى الاسباب ثم تتبع منازعتهم فيما بعد وكيف كانوا يثيرون مسألة عرضية فارغة فتثور معها حروب طاحنة تطيح فيها الرءوس وتزهق النفوس وان الباحث ليحار في التوفيق بين براعة هؤلاء الرجال وتفوقهم في اساليب الحرب والدين معاً، وبين ما يتمسكون به من سفساف الأمور وما يرتكبونه من الأخطاء التي لايقع فيها الأطفال، على ان حل هذه المشكلة وذلك التناقض في نظرنا يسير اذا اعملنا الروية واصطنعنا الأناة والفكر فقد كان زعماء الخوارج ـ ويجب ان نفرق بين زعماء الخوارج وجمهرتهم ـ ذوي اغراض سياسية بعيدة ومطامح جريئة لاتقل عن التفرد بالملك والاستئثار بالأمر وكانوا خطباء مهرة يلهبون الحماسة في نفوس اصحابهم الهابا ويدفعونهم باسم الورع والصلاح ونصرة الدين وقهر اعدائه الألداء وإقامة حدود الله، فتنخدع الجمهرة وتقدم ـ بما فيها من شجاعة وقوة وتفان في نصرة العقيدة ـ الى اقتحام الموت ويندفع سادتهم واشرافهم بما في نفوسهم من مطامح بعيدة المدى وامال كبار في تحقيق مآربهم الجريئة بحماسة زائدة الى خوض غمار الحروب واقتحام الصفوف والاستهانة بالموت حتى لتقول احدى نسائهم وهي تخوض الحرب (١)

احمل رأساً قد مللت حمله   وقد مللت دهنه وغسله
الا فتى يحمل عني ثقله

وكان يكفي زعيم الخوارج او المتطلع للزعامة ان يثير مشكلة دينية لفظية فارغة لينتقم من زعيم آخر فينزله عن زعامته ويسقط مكانته الدينية ليحل مكانه ويتولى الزعامة بعده، ولولا هذه الخلافات ما علم الا الله وحده كيف كانت تكون عاقبة أمرهم

---

(١) هي أم حكيم زوج قطري بن الفجاءة

* * *

وما نحسب أن ثورة زعماء الخوارج على علي بن ابي طالب الا تطلعاً للملك وتمحلا لأسباب الكيد من قريش حسداً وغيرة لما نالته قريش من السلطان والرفعة فقد طالما حاول الخوارج أن يجدوا فرصة يتحينونها لأشباع رغباتهم ومطامعهم حتى اتيحت لهم فرصة التحكيم فانتهزوها للانشقاق والفتنة .

* * *

ولولا ماسلكه المهلب بن أبي صفرة من ضروب الشجاعة والحزم مع ماوهبه من خبرة بالحرب وبعد نظر ، لاستفحل أمر الخوارج استفحالا ماكان اجدره أن يغير وجه التاريخ.

وفي يقيننا أن المهلب لو كان خارجيا كشبيب أو لو كان شبيب من أنصار بني أمية كالمهلب، لكان لحوادث التاريخ مجرى يخالف كل المخالفة ما وقع، وليس في قدرتنا في هذه الكلمات الموجزة أن نوضح ماامتاز به المهلب من المزايا الباهرة وما أبلاه في حروب الخوارج من البلاء الحسن فأن هذا يخرج بنا عن موضوع الكتاب وما أجدر المهلب بسفر مطول يتناول فيه المؤرخ شخصيته العظيمة وتاريخه المجيد، وحسبنا ان نختم هذا الفصل بوصف أحد الشعراء المجيدين المهلب بعد انتصاره على الخوارج في قصيدة طويلة نجتزىء منها بقوله:

امسى العباد بشر لا غياث لهم ... الا المهلب ـ بعد الله ـ والمطر
كلاهما طيب ترجى نوافله ... مبارك سيبه يرجى وينتظر
هذا يذود ويحمي عن ذمارهم ... وذا يعيش به الانعام والشجر
واستسلم الناس إذ حل العدو بهم ... فلا ربيعتهم ترجى ولا مضر
وأنت رأس لاهل الدين منتخب ... والرأس فيه يكون السمع والبصر
إن المهلب في الايام فضّلَهُ ... على منازل اقوام اذا ذكروا

حزم وجود وأيام له سلفت   فيها يعد جسيم الأمر والخطر
ماض على الهول ما ينفك مرتحلاً   اسباب معضلة يعيا بها البشر
شهاب حرب اذا حلت بساحته   يخزي به الله اقواما اذا غدروا
تزيده الحرب والاهوال ان حضرت   حزماً وعزماً ويجلو وجهه السفر
ما إن يزال على ارجاء مظلمة   لولا يكفكفها عن مصرهم دحروا
سهل اليهم حليم عن مجاهلهم   كأنما بينهم عثمان او عمر
كهف يلوذون من ذل الحياة به   اذا تكنفهم من هولها ضرر
أمن لخائفهم فيض لسائلهم   ينتاب نائلهُ البادون الحضر



مصرع عبد الرحمن بن الاشعث

كيف صرع

« وما زال في سيره هارباً حتى لحق بخراسان ، ورجا في لحوقه بها النجاة من الحجاج والحذر لنفسه ، ولم يشعر بالخيل التي في طلبه حتى غشيته ، فلم تزل تطلبه من موضع إلى موضع حتى استغاث بقصر منيف، فحصره ابن عم الحجاج فيه ، وأحاطت به الخيل من كل جانب حتى ضيق عليه ، ودعا بالنار ليحرقه في القصر ، فلما رأى ابن الأشعث أنه لا محيص له ولا ملجأ وخاف النار رمى بنفسه من أعلى القصر ، وطمع أن يسلم ولا يشعر به فيدخل في غمار الناس فيخفي أمره ويكتم خبره ، فسقط فانكسرت ساقه وانخذل ظهره ووقع مغشياً عليه،فشعر به أصحاب الحجاج فأخذوه — وقد أفاق بعض الافاقة ولا يقدر على النهوض — فأتوا به إلى ابن عم الحجاج، فلما رآه بتلك الحال أيقن أنه لا يقدر أن يبلغ الحجاج حتى يموت، فأمر به فضربت رقبته وانطلق برأسه الى الحجاج »

مقدمات المصرع

وهكذا انتهت حياة هذا الجبار المزهو الذي لم تقف اطماعه عند حد ، والذي كان يأبى إلا ازدراء الحجاج والتكبر عليه ، ولقد حاول الحجاج ان يترضاه بكل وسيلة ، واحتال على استمالته إليه بألف حيلة فلم يفلح ، فلم ير الحجاج امامه إلا ان يمهد له الأسباب ليتعرف حقيقة نواياه بصراحة،ويغريه بالثورة عليه فيشتبك معه في موقعة حاسمة ، أو يظل بعيداً عنه حتى يستريح من رؤيته ولا يضايق نفسه بما يبديه له من صلف .

ولقد اراد الحجاج أن يستعين بأسرة ابن الاشعث حين ولي العراق ليكونوا له قوة يعتز بها على اعدائه ، فلم يكد يقدم العراق اميراً حتى زوج ابنه محمد من ميمونة بنت محمد بن الأشعث ليستميل بذلك أهلها وقومها إليه ، وقد أفلح في ذلك ، وإن

أخفق في استمالة أخيها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . قالوا : « وكان له أبهة في نفسه وكان جميلا بهياً منطيقاً — مع ما كان له من التقدم والشرف ، فازدهاه ذلك كبراً وفخراً وتطاولا . وقد قربه الحجاج ، والحقه بأفاضل أصحابه وخاصته واهل سره — كما يقولون — واجرى عليه العطايا الواسعة — صلة لصهره وحباً لأتمام الصنيعة اليه والى جميع أهله ، فأقام عبد الرحمن كذلك حيناً مع الحجاج لا يزيده الحجاج إلا اكراماً ولا يظهر له إلا قبولا ، وفي نفس الحجاج من عجبه مافيها، لتشمخه زاهياً بأنفه حتى إنه كان ليقول — إذا رآه مقبلا : —

« أما والله ياعبد الرحمن إنك لتقبل علي بوجه فاجر وتدبر عني بقفاء غادر ، وايم والله لنبتلين حقيقة أمرك على ذلك »

قالوا : فمكث بهذا القول منه دهراً حتى اذا عيل صبر الحجاج من صلف عبد الرحمن أراد أن يبتلي حقيقة ما يتفرس فيه من الغدر والفجور ، وأن يبدي منه ما يكتم من غائلته ، فكتب اليه عهده على سجستان »

وانما أراد الحجاج بذلك أن يمهد له سبيل الثورة حتى يحسم أمره ، وقد ادركت اسرة ابن الأشعث ما يريده الحجاج وذعرت من ذلك أشد الذعر ، فتوسلوا إلى الحجاج أن يرجع عن عزمه فلم يقبل ، فقالوا له :

« أصلح الله الأمير ، إنا اعلم به منك فانك به غير عالم ولقد ادبته بكل أدب، فأبى أن ينتهي عن عجبه بنفسه ،ونحن نتخوف أن يفتق فتقاً أو يحدث حدثا يصيبنا فيه منك مايسوءنا »

فقال لهم الحجاج :

«القول كما قلتم والرأي كالذي رأيتم ، ولقد استعملته — على بصيرة — فان يستقم فلنفسه نظر »

وقد صدق رأي الحجاج فيه ، فقد توجه ابن الأشعث — وهو مصر على الغدر —

رسالة الخلع

ولم يكد يمر عليه عام حتى بعث الى الحجاج برسالة يخلع بها طاعته ويقول فيها:[١]

« سلام على اهل طاعة الله وأوليائه الذين يحكمون بعدله ويوفون بعهده ويجاهدون في سبيله ويتورعون لذكره ولا يسفكون دما حراما ، ولا يعطلون للرب احكاما . . . . . »

الى ان يقول : « أن الله أنهضني لمصاولتك وبعثني لمناضلتك حين تحيرت امورك وتهتك ستورك فأصبحت عريان حيران مهينا لا توافق وفقا ولا ترافق رفقا ولا تلازم صدقا ، أؤمل من الله الذي المني ذلك أن يصيرك في حبالك وان يجيء بك في القرن ويسحبك الذقن وينصف منك من لم تنصفه من نفسك ويكون هلاكك بيد من اتهمته وعاديته ، فلعمري لقد طال ما تطاولت وتمكنت الخ »

وهكذا بدأت الحرب بين ابن الاشعث والحجاج .

ولقد حاول « سعيد بن جبير » ان يرد ابن الأشعث وأصحابه عن عزيمته الجريئة فلم يستطع ، فقال لهم :

« ان الخلع فيه الفتنة والفتنة فيها سفك الدماء واستباحة الحرم وذهاب الدين والدنيا »

فقالوا له :

« إنه الحجاج وقد فعل ما فعل »

قالوا :

« وما زالوا يذكرون له من مساوىء الحجاج حتى صار معهم وهو كاره »

☆☆☆

قالوا وبعث الحجاج « الغضبان الشيباني ليأتيه بخبر « ابن الأشعث » فتوجه الغضبان إليه وأفضى اليه بسره ، وقال له :

---

(١) كتبها لابن الاشعث أحد خلصائه

تغد الحجاج قبل أن يتعشاك (١)

---

(١) وقد ذكر الرواة عنه أقصوصة طريفة ممتعة لا بأس من اثباتها هنا لما فيها من الطرافة والخيال .

قالوا : انه بعد أن انصرف من عند بن الاشعث نزل « رملة كرمان » وهي ارض شديدة الحر ، فضرب بها قبة وجلس فيها

فبينما هو كذلك اذ ورد اعرابي — من بكر بن وائل — فقال له :

« السلام عليك »

فقال له الغضبان : «السلام كثير وهي كلمة مقولة »

قال الأعرابي : « من أين أقبلت ؟ »

قال : « من الأرض الذلول »

قال : « وأين تريد ؟ »

قال : « أمشي في مناكبها وآكل من رزق الله الذي أخرج لعباده منها »

ثم قال له الأعرابي ـ بعد حوار قصير : ـ

« أتقرض ؟»

قال : « انما تقرض الفأرة »

قال : « أتنشد ؟ »

قال : « انما تنشد الضالة »

قال : « أفتسجع ؟ »

قال : « انما تسجع الحمامة »

قال : « أفتنطق ؟ »

قال : « إنما ينطق كتاب الله »

قال : « أفتقول ؟ »

قال : «انما يقول الأمير»

قال : « تالله ما رأيت مثلك قط »

قال : « بلى ولـكنك نسيت »

قال الاعرابي : « فكيف أقول ؟ »

قال : « أخذتك القول في الماقول وأنت قائم تبول »

قال : « أتأذن لي أن ادخل عليك »

قال : « وراءك أوسع لك»

قال : « قد أحرقتني الشمس »

قال : « الآن يفيء عليك الفيء إذا غربت الشمس »

قال : « إن الرمضاء قد احرقت قدميّ »

قال : « بل عليها يبردان »

قال : « ان الوهج شديد »

قال: «مالي عليه سلطان»

قال : « إني والله ما أريد طعامك ولا شرابك »

قال : « لا تعرّض بهما ، فوالله لا تذوقهما»

قال : « وما عليك لو ذقتها »

قال: «تأكل وتشبع ،فان فضل شيء من الاكرياء والغلمان فالكلب أحق به منك »

قال سبحان الله ! »

قال : « نعم قبل أن يطلع رأسك وأضراسك الى الدنيا »

قال الاعرابي : « ما عندك الا ما أرى »

قال : « بلى ، عندي هراوتان اضرب بهما رأسك حتى ينتثر دماغك »

قال : « انا لله وانا الله ارجعون »

قال : « أظلمك أحد ؟ »

قال : « ما أرى . »

ثم تركه وانصرف

ما قاله الغضبان فسجنه [١] مدة طويلة

---

(١) قالوا : « وقد ذكره الحجاج بقوله لابن الاشعث ؟ »

« تغدّ الحجاج قبل ان يتعشاك »

فاعتذر اليه الغضبان بقوله : « أما إنها لاتنفع من قيلت لهولا تضر من قيلت فيه »

وهنا يروي القصاص رواية اخرى طريفة

فيقولون : إن الحجاج قال له : —

« ولكن أتراك تنجو مني بهذا والله لأقطعن يديك ورجليك ولأضربن بلسانك عينيك » فقال : « قد آذاني الحديد وأرهق ساقيّ القيود فما يخاف من عدلك البرىء ولا يقطع من رجائك المسيء . »

قال الحجاج : « انك لسمين فقال من يكُ ضيف الامير يسمن » قال : — « لأحملنك على الأدهم » قال « مثل الامير ـ أصلحه الله ـ يحمل على الادهم والاشقر » قال الحجاج « انه لحديد » قال « لأن يكون حديداً ، خير من ان يكون بليداً »

قال الحجاج « اذهبوا به الى السجن » قال : —

« فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون »

قالوا « وما زال في السجن حتى بنى الحجاج خضراء واسط فقال لجلسائه : « كيف ترون هذه القبة ؟ »

قالوا : « ما رأينا مثلها قط »

قال الحجاج « أما إن بها لعيبا ، فما هو ؟ »

قالوا : « ما نرى بها عيبا »

قال : « سأبعث الى من يخبرني به »

فبعث فجاء الغضبان وهو يرسف في قيوده ، فلما مثل بين يديه قال له :

« ياغضبان كيف قبتي هذه ؟ »

قال « أصلح الله الامير نعمت القبة حسنة مستوية »

قال « أخبرني بعيبها »

ثم أطلق سراحه فيما بعد .

قال : « بنيتها في غير بلدك ، لا يسكنها ولدك، ومع ذلك فانه لا يبقى بناؤها ، ولا يدوم عمرانها ، ومالا يبقى ولا يدوم فكأنه لم يكن »

قال الحجاج : — « ردوه الى السجن »

فقال: «أصلح الله الامير ، قدأكلني الحديد ، وأوهت ساقيّ القيود، وماأطيق المشي»

قال احملوه ، فلما حمل على الأيدي ، قال: « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »

قال : « أنزلوه »

قال « ربّ انزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين »

قال الحجاج « جروه » قال الغضبان وهو يجر « باسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم »

قال الحجاج « اضربوا به الارض »

فقال « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »

فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه ثم قال

« ويحكم قد غلبني والله هـذا الخبيث ، اطلقوه الى صفحي عنه »

فقال الغضبان « فاصفح عنهم وقل سلام »



(٣) بين الحجاج وابن الأشعث

وكان الحجاج وليس بالعراق رجل ابغض
اليه من عبد الرحمن بن الاشعث ، وكان يقول ما
رأيته قط إلا اردت قتله [١] « المؤرخون »

أعد الحجاج جيوشه لمحاربة ابن الاشعث ، فجعل ابن الاشعث لا يلقى خيلا إلا هزمها ، قالوا « وعلم المهلب بشقاق عبد الرحمن فكتب اليه :

« كتاب المهلب الى عبد الرحمن »

اما بعد ، فانك وضعت رجلك يا ابن محمد في غرز طويل الغيّ على أمة محمد (ص) ، الله الله فانظر لنفسك فلا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تنكثها ، فان قلت أخاف الناس على نفسي فالله أحق ان تخافه عليها من الناس فلا تعرضها لله في سفك دم ولا استحلال محرم والسلام »

كتاب المهلب الى الحجاج

وكتب المهلب الى الحجاج :
« أما بعد فإن اهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من علُ ، ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره ، وإن لأهل العراق شِرة في آول مخرجهم

---

(١) قال الشعبي :
كنت عند الحجاج جالساً حين دخل عليه عبد الرحمن بن الأشعث ، فلما رآه الحجاج قال : انظر : الى مشيته ، والله لهممت أن أضرب عنقه
قال : فلما أخبرت عبد الرحمن بما قاله الحجاج فيه
قال : « انا كما زعم الحجاج إن لم احاول ان أزيله عن سلطانه فأجهد الجهد اذا طال بي وبه بقاء »

وصبابة إلى ابنائهم ونسائهم فليس شيء يزدهم حتى يسقطوا إلى اهليهم ويشموا أولادهم ثم واقفهم عندها فان الله ناصرك عليهم إن شاء الله »

ولكن حقد الحجاج على عبد الرحمن وغيظه منه ، كان قد بلغا اقصى مدى فأعمياه عن سماع هذه النصيحة الحكيمة كما أعميا خصمه عبد الرحمن عن الرجوع إلى سبيل الرشد ، فكانت الحرب الهوجاء الطاحنة التي كادت تعصف بالحجاج فتهلكه ، ثم دار القدر دورة أخرى في الساعة الحاسمة فانهزم عبد الرحمن وغنم الحجاج الفوز في ساعة اليأس المميت.

ولقد استهان الحجاج برأي المهلب وظنه يخدعه ، فقال — بعد قراءته —

« فعل الله به وفعل ، لا والله مالي نظر ، ولكننا لابن عمه نصح »

والحق ان المهلب قد نصح ابن عمه كما نصح الحجاج ، وكان بعيد النظر سديد الرأي موفق التدبير ، وقد ظهر للحجاج بعد نظر المهلب وصدق رأيه حين هزمه ابن الاشعث فقال :

« لله ابوه ، اي صاحب حرب هو ! أشار علينا بالرأي ولكن لم نقبل »

ولقد امتلأ ابن الأشعث غروراً بعد هزيمة الحجاج ، وظهرت مطامعه الجريئة واضحة في قوله وهو يخطب أصحابه :

« اما الحجاج فليس بشيء ، ولكننا نريد غزو عبد الملك »

وقعة الزاوية

قال أبو الزبير الهمداني :

كان دخول عبد الرحمن البصرة في آخر ذي الحجة ، واقتتلوا في المحرم من سنة ٨٢ ، فتزاحفوا ذات يوم ، فاشتد قتالهم ، ثم إن أهل العراق هزموهم حتى انتهوا إلى الحجاج وحتى قاتلوهم على خنادقهم وانهزمت عامة قريش وثقيف .

ثم أنهم تزاحفوا في المحرم في آخره — في اليوم الذي هزم فيه أهل العراق اهل

الشـام فنكصت ميمنتهم وميسرتهم واضطربت رماحهم وتقوض صفهم حتى دنوا منا

(ساعة حرجة)

قال الهمداني :

فلما رأى الحجاج ذلك جثا على ركبتيه وانتضى نحوا من شبر من سيفه وقال (لله درمصعب ماكان أكرمه حين نزل به ما نزل)

فعلمت انه والله لايريد ان يفر . فغمزت أبي بعيني ليأذن لي فيه فأضربه بسيفي فغمزني غمزة شديدة فسكنت .

انتصار الحجاج

قال : وحانت مني التفاتة فاذا سفيان بن الأبرد قد حمل عليهم فهزمهم من قبل الميمنة فقلت : (أبشر أيها الأمير فان الله قد هزم العدو)

فقال لي : (قم فانظر)

فقمت فنظرت ، فقلت (قد هزمهم الله)

قال : (قم يازياد فانظر)

فنظر ، فقال : (الحق — اصلحك الله — يقينا قد هزموا)

قال : فخر الحجاج ساجداً

فلما رجعت شتمني أبي وقال : (أردت ان تهلكني وأهل بيتي ؟)

وهكذا كسب الحجاج المعركة بعد أن تحقق خسرانها، وادرك الفوز — وهو على حافة الهلاك — وحاطته العناية والتوفيق في ساعة تشيب فيها النواصي وتنخلع القلوب .

وقعة دير الجماجم

« ونزل دير الجماجم ، واجتمع أهل الكوفة
واهل البصرة وأهل الثغور وغيرهم بدير الجماجم
على حرب الحجاج ، وجمعهم عليه بغضبهم والكراهية
له »

كان موقف الحجاج حرجا جداً في هذه الموقعة ، فقد علم أن عبد الملك يهم بخلعه وتولية غيره حتى تستتب الأمور وقد ،كاد يتم خلعه ، ورأى الحجاج أن خسران هذه الوقعة البوار اهون منه ، ففرق الأعطيات واستحث الجند وتخير للموقعة الحاسمة يوم الأربعاء .

قالوا : « وهو يوم يتطير به أهل العراق فلا يتناكحون ولا يسافرون فيه ولا يدخلون من سفر ولا يبايعون فيه بشيء »

وقد حمي وطيس الحرب واشتد القتال وكسرت ميسرة جيش الحجاج

قالوا : « فحمل سفيان على جيش ابن الاشعث وهم بالميسرة مشغولون قد طمعوا فيها فهزمهم وكانت الغلبة له »

ساعة النصر

ولما أنهزم ابن الأشعث دعا الحجاج بدابته فركبها — بعد سجود ودعاء وشكر ، وكبر الحجاج وكبر إصحابه معه تكبيراً عاليا .

قالوا : « ثم انتهوا الى ربوة فأومأ اليها ثم استقبل ناحيتهم والسيوف تأخذهم ، وحسر بيضته عن رأسه ، فجعل يقرع رأسه بخيزران في يده وهو يتمثل بهذه الابيات[١]

كيف ترجون سقوطي بعدما جلل الرأس بياض وصلع
ساء ما ظنوا ، وقد أريتهم عند غايات المدى كيف اقع

---

(١) والابيات لسويد بن ابى كاهل اليشكري من قصيدة طويلة له .

رب من انضجت غيظا قلبه   قد تمنى لي موتاً لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه   عسرا مخرجه ما ينتزع
مزبد يهدر ما لم يرني   فاذا أسمعته صوتي انقمع
ويحييني — إذا لاقيته —   وإذا يخلو له لحمي رتع
ورث البغضاء عن والده   حافظا منه الذي كان استمع
ولساني صيرفي صارم   كذباب السيف ما مس قطع

هلاك ابن الأشعث

وما زال ابن الأشعث يمعن في فراره وجيوش الحجاج تتبعه ، حتى لحق بخراسان ورجا في لحوقه بها النجاة من الحجاج والحذر لنفسه ، ولم يشعر بالخيل التي في طلبه حتى غشيته ، فلم تزل تطلبه من موضع إلى موضع حتى استغاث بقصر منيف .

فحصره ابن عم الحجاج وأحاطت به الخيل من كل جانب حتى ضيق عليه .

ودعا بالنار ليحرقه في القصر ، فلما رأى ابن الأشعث أنه لا محيص له ولا ملجأ ، وخاف النار ، رمى بنفسه من القصر وطمع في ان يسلم ولا يشعر به فيدخل في غمار الناس ، فيخفي امره ويكتم خبره ، فسقط فانكسرت ساقه وانخذل ظهره ووقع مغشياً عليه .

فشعر به أصحاب الحجاج فأخذوه وقد أفاق بعض الافاقة ولا يقدر على النهوض فأتوا به إلى ابن عم الحجاج ، فلما رآه بتلك الحال أيقن انه لا يقدر على ان يبلغ الحجاج حتى يموت .

فامر به فضربت رقبته وانطلق برأسه الى الحجاج

وهكذا انتهت حياة هذا الجبار ، وانقضت مطامعه الجريئة ، التي لم تقف عند حد الانتصار على الحجاج بعد تعدته الى ذلك الرغبة في عرش الخلافة الأموية وعزل عبدالملك ابن مروان ، ولكن :

تقفون والفلك المسخر دائب   وتقدرون فتضحك الأقدار

مصرع سعيد بن جبير (١)

«بعثني الحجاج في حاجة فجيء بسعيد بن جبير
فرجعت ، فقلت لأنظرن ما يصنع ، فقمت على
رأس الحجاج فقال له الحجاج يا سعيد الم اشركك
في اماتي ؟ ألم أستعملك ؟ الم افعل ... حتى ظننت
انه يخلي سبيله

قال: بلى قال :فما حملك على خروجك عليّ ؟

قال : عزم عليّ

فطار غضباً وقال هي رأيت لعزمة عدو الرحمن
عليك حقاً ولم تر لله ولا لأمير المؤمنين ولا لي
عليك حقاً اضربوا عنقه ، فضربت عنقه »

الفضل بن سويد

سبب قتله

قلنا في الكلام على مصرع عبد الرحمن بن الأشعث - إن سعيد بن جبير ناصره وخلع معه طاعة الحجاج - بعد أن فشل في اقناع ابن الأشعث بالرجوع عن عزمه ، وكأنما كان ابن ابي ربيعة يعنيه بقوله :

وخلّ كنت عين النصح منه اذا نظرت ومستمعاً سميعا
اطاف بغية ، فنهيت عنها وقلت له : أرى امراً شنيعاً
اردت رشاده جهدي ، فلما أبى وعصا اتيناها جميعاً

فلما هزم ابن الاشعث هرب معه سعيد وظل مختفياً والحجاج يطلبه الى سنة ٩٤ واخيراً ملّ سعيد الاختفاء ، بعد أن ضيق عليه الحجاج الحصار

---

(١) قتل في سنة ٩٤ هـ

قال له أحد خلصائه :

« إن فلانا قد أمر على مكة ، وهو رجل سوء لايؤمن ، وانا اتقيه عليك فاظعن وأشخص »

فقال له ابن جبير :

« قد والله فررت حتى استحييت من الله ، سيجيئني ماكتب الله لي »

وهكذا استسلم ابن جبير لقضاء الله حتى قبض عليه عامل الحجاج وبعث به اليه.

في الطريق الى المصرع

قالوا :

ولما أقبل الحرسيّان بسعيد بن جبير ، نزل منزلاً قريباً من « الربذة » فانطلق أحد الحرسيين في حاجته ، وبقي الآخر

فاستيقظ الذي عنده — وقد رأى رؤيا — فقال له : ياسعيد ابرأ الى الله من دمك ، إني رأيت في منامي ، فقيل : « ويلك تبرأ من دم سعيد بن جبير » « اذهب حيث شئت ، لا أطلبك أبدا »

فقال له سعيد :

« أرجو العافية وأرجو »

وأبى حتى جاء ذاك .

فنزلا من الغد ، فأرى مثلها فقيل : « ابرأ من دم سعيد »

فقال : « ياسعيد ، اذهب حيث شئت ، إني أبرأ الى الله من دمك » فلم يقبل سعيد ، وأصر على الذهاب معهما الى الحجاج .

قال شاهد عيان :

لما رأى الحجاج سعيداً بن جبير ، أقبل عليه وقال له :

« ياسعيد ، ما أخرجك عليَّ »

فقال : « أصلح الله الامير ، انما أنا امرؤ من المسلمين يخطيء مرة ويصيب مرة »

فطابت نفس الحجاج وتطلق وجهه ورجا أن يتخلص من أمره (١)

---

(١) كان من الطبيعي أن يقف الأمر عند هذا الحد فلا يقتل الحجاج سعيد بن جبير ، فقد عفا الحجاج عن كثير بن لحسن جوابهم ، ولكن شاءت منية ابن جبير إلا أن يخطيء هوى الحجاج بعد ذلك .

ومن الامثلة التي نسوقها في هذا الصدد ، ـ على سبيل المثال ـ عفو الحجاج عن الشعبي بعد أن هم بقتله ، ولم يكن بينه وبين الفتك به إلا أن يأمر بذلك فيصبح في عداد الهالكين .

قالوا : « لما سار عامر بن سعيد الشعبي إلى الدخول على الحجاج ، لقيه رجل من صحاب الحجاج ، فقال له :

« ياشعبي ، لهفي على العلم الذي بين دفتيك وليس بيوم شفاعة ، إذا دخلت على الأمير فبؤ له بالكفر والنفاق عسى أن تنجو »

فلما دخل على الحجاج صادفه واضعاً رأسه لم يشعر ، فلما رفع رأسه قال له :

« وأنت أيضاً ياشعبي فيمن أعان علينا وألب ؟ »

فقال الشعبي :

« أصلح الله الأمير ، إني أمرت بأشياء أقولها لك أرضيك بها واسخط الرب ولست أفعل ولكني اصلح الله الأمير وأصدقك القول فان كل شيء يقع بين يديك فهو في الصدق ان شاء الله : احزن بنا المنزل واجدب الجناب واكتحلنا السهر واستحلسنا الخوف وضاق بنا البلد العريض فوقعنا في حرب لم يكن فيها بررة اتقياء ، ولا فجرة أقوياء . فقال له الحجاج كذلك قال نعم أصلح الله الأمير وامتع به قال فنظر الحجاج إلى أهل الشام فقال صدق والله يا أهل الشام ما كانوا بررة اتقياء فيتورعوا عن قتالنا ولا فجرة أقوياء فيقووا علينا ثم قال : انطلق ياشعبي فقد عفونا عنك فأنت أحق بالعفو ممن يأتينا وقد تلطخ بالدماء ثم يقول كان وكان

قال : فغضب الحجاج وانتفخ حتى سقط أحد طرفي ردائه عن منكبه .

فقال : « يا سعيد ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير ثم أخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك؟»

قال : « بلى »

قال : « ثم قدمت الكوفة والياً على العراق ، فجددت لأمير المؤمنين البيعة ، فأخذت بيعتك له ثانية؟»

قال: «بلى»

قال : فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين وتفي بواحدة للحائك بن الحائك (١) ؟

وهنا اهتاج الحجاج وامتلأت نفسه غيظا وحنقا فصاح قائلا :

اضربوا عنقه

حوار قصصي

وقد ذكروا حواراً ظريفاً لانشك في ان للخيال جانباً كبيرا فيه فقالوا :

لماقدم سعيد على الحجاج قال له ماسمك؟ قال سعيد قال ابن من؟ قال ابن جبير قال: بل انت شقي ابن كسير قال سعيد امي اعلم باسمي واسم ابي قال الحجاج شقيت وشقيت امك قال سعيد الغيب يعلمه غيرك قال الحجاج لأوردنك حياض الموت قال سعيد اصابت اذا امي اسمي فقال الحجاج لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى قال سعيد ولو اني اعلم ان ذلك بيدك لاتخذتك الهاً قال الحجاج فما قولك في محمد قال سعيد نبي الرحمة ورسول رب العالمين الى الناس كافة بالموعظة الحسنة ، فقال الحجاج فما قولك في الخلفاء قال سعيد : لست عليهم بوكيل كل امرىء بما كسب رهين قال الحجاج اشتمهم ام مدحهم

---

(١) وفي هذا يقول جرير :

يا رب ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الاوداج

قال سعيد . لا اقول ما لا اعلم أنما استحفظت امر نفسي . قال الحجاج ايهم اعجب اليك،قال حالاتهم يفضل بعضهم على بعض قال الحجاج صف لي قولك في علي افي الجنة هو ام في النار؟ قال سعيد لو دخلت الجنة فرأيت اهلها علمت ولو رأيت من في النار علمت فما سؤالك عن غيب قد حفظ بالحجاب ، قال الحجاج فأي رجل انا في يوم القيامة ، فقال سعيد انا اهون على الله من ان يطلعني على الغيب، قال الحجاج ابيت ان تصدقني قال سعيد بل لم ارد ان اكذبك فقال الحجاج فدع عنك هذا كله اخبرني ما لك لم تضحك قط قال . لم ار شيئاً يضحكني وكيف يضحك مخلوق من الطين والطين تأكله النار ومنقلبه الى الجزاء واليوم يصبح ويمسي في الابتلاء ، قال الحجاج فأنا اضحك فقال سعيد كذلك خلقنا الله اطواراً قال الحجاج هل رأيت شيئاً من اللهو ؟ قال لا اعلمه، فدعا الحجاج بالعود والناي قال فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى سعيد قال الحجاج مايبكيك؟ قال : ياحجاج ذكرتني امراً عظيماً والله لاشبعت ولا رويت ولا اكتسيت ولا زلت حزيناً لما رأيت،قال الحجاج ما كنت رأيت هذا اللهو فقال سعيد . بل هذا والله الحزن اما هذه النفخة فذكرتني يوم النفخ في الصور واما هذا المصران فمن نفس ستحشر معك الى الحساب واما هذا العود فنبت بحق وقطع لغير حق ، فقال الحجاج انا قاتلك قال سعيد قد فرغ من تسبب موتي قال الحجاج انا احب الى الله منك قال سعيد لا يقدم احد على ربه حتى يعرف منزلته منه والله بالغيب أعلم،قال الحجاج كيف لا اقدم على ربي في مقامي هذا وانا مع امام الجماعة وانت مع امام الفرقة والفتنة؟ قال سعيد ما انا بخارج عن الجماعة ولا انا براض عن الفتنة ولكن قضاء الرب نافذ لامرد له،قال الحجاج كيف ترى ما نجمع لأمير المؤمنين ا قال سعيد لم ار شيئاً فدعا الحجاج بالذهب والفضة والكسوة والجوهر فوضع بين يديه قال سعيد : هذا حسن ان قمت بشرطه،قال الحجاج وما شرطه ؟ قال : ان تشتري له بما تجمع الأمن من الفزع الاكبر يوم القيامة والا فأن كل مرضعة تذهل عما ارضعت ويضع كل ذي حمل حمله ولا ينفعه الا ماطاب منه قال الحجاج؟ جمعنا طيباً ؟ قال برأيك جمعته وانت اعلم بطيبه قال الحجاج أتحب ان لك منه شيئاً؟ قال لاأحب مالا يحب الله. قال الحجاج: ويلك! قال سعيد الويل

لمن زحزح عن الجنة فأدخل النار قال الحجاج اذهبوا به فاقتلوه قال اني اشهدك ياحجاج ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله استحفظكهن ياحجاج حتى القاك، فلما ادبر ضحك قال الحجاج ما يضحكك ياسعيد قال : عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك. قال الحجاج: انما اقتل من شق عصا الجماعة ومال الى الفرقة التي ينهى الله عنها اضربوا عنقه قال سعيد حتى اصلي ركعتين فاستقبل القبلة وهو يقول : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفاً مسلماً وما انا من المشركين ، قال الحجاج : اصرفوه عن القبلة الى قبلة النصارى الذين تفرقوا واختلفوا بغياً بينهم فأنه من حزبهم ، فصرف عن القبلة فقال سعيد . فأينما تولوا فثم وجه الله الكافي بالسرائر ، قال الحجاج لم نوكل بالسرائر وانما وكلنا بالظواهر قال سعيد . اللهم لا تترك له ظلمي واطلبه بدمي واجعلني آخر قتيل يقتل من أمة محمد .

فضربت عنقه ثم قال الحجاج هاتوا من بقي من الخوارج فقرب اليه جماعة فأمر بضرب أعناقهم فقال : « ما أخاف الا دعاء من هو في ذمة الجماعة من المظلومين فأما امثال هؤلاء فأنهم ظالمون حين خرجوا عن جمهور المسلمين وقائد سبيل المتوسمين وقال قائل ان الحجاج لم يفرغ من قتله حتى خولط في عقله وجعل يصيح : قيودنا قيودنا يعني القيود التي كانت في رجل سعيد بن جبير، ويقال متى كان الحجاج يسأل عن القيود ويعبأ بها »

☆☆☆

وما نحسب الحجاج إلا فزع وارتاع لقتل هذه الشخصية الكبيرة الفذة وندم أشد الندم ، ولكن بعد أن سبق السيف العذل .

مصرع أبي مسلم الخراساني

« وأخذ أبو مسلم بيد المنصور يعركها ويعتذر إليه .

ولكن المنصور أسرع فصفق بيده ، فخرج عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف فلم يزد على أن قطع حمائل سيفه

فأومأ ابو مسلم الى رجل ابي جعفر يقبلها ويقول :

انشدك الله يا أمير المؤمنين ، استبقني لأعدائك

فدفعه برجله وقال له . لا أبقاني الله اذن ، وأي عدو لي أعدى منك ؟

فضربه شبيب فقطع رجله .

فقال ابو مسلم :

واتعساه ، ألا قوة ؟ ألا مغيث ؟

وصاح المنصور . اضربوه ، قطع الله أيديكم

فاعتوره القوم بالسيوف فقتلوه

مقدمات المصرع

(١) في الحج

بدأت مطامع ابي مسلم تتجلى واضحة في آخر خلافة أبي العباس وأول خلافة أبي جعفر ، وبدا النفور يظهر رويدا حتى انتهى بهذا المصرع المروّع !

وقد بدأ الخلاف يظهر واضحا والامتعاض يشتد حين كتب ابو مسلم الى ابي العباس يستأذنه في الحج سنة ١٣٦ ، قالوا . « وانما أراد أن يصلي بالناس » فأذن له .

وخشي ابو العباس من نفوذ أبي مسلم وتعاظم شأنه وخطره فكتب الى ابي جعفر يقول .

« ان ابا مسلم كتب الي يستأذن في الحج وقد أذنت له ، وقد ظننت أنه اذا قدم يريد ان يسألني ان اوليه اقامة الحج للناس ، فاكتب الي تستأذني في الحج ، فانك إذا كنت بمكة لم يطمع ان يتقدمك . ففعل .

ولم يكد يعلم أبو مسلم بخروج أبي جعفر الى الحج حتى امتلأت نفسه غيظا وحقدا وقال .

« أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا »

ولم تكن مثل هذه الحيلة لتخفى على ذكاء أبي مسلم وبعد نظره ، فقد شعر أنهم ينفسون عليه مكانته ويستكثرون عليه ما ناله من رفعة وخطر .

قالوا . فاضطغنها على ابي جعفر

ولم يقف أبو مسلم عند هذا الحد ، فكان يتحبب إلى العرب ويستجلب مودتهم

قالوا . « وكان يصلح العقاب ويكسو الأعراب في كل منزل ويصل من سأله »

قالوا . « وكسا الأعراب البتوت والملاحف ، وحفر الآبار وسهل الطرق »

« فكان الصوت له ، وكان الأعراب يقولون : هذا المكذوب عليه »

وفي بعض هذا مايثير الأحقاد ، ويلهب الحسد في نفس أبي جعفر الذي لم ينس له تقدمه عليه في الحج ولم يترك حيلة الا احتالها عليه حتى شفى نفسه بالانتقام منه .

* * *

وان أبا جعفر ليفكر في الانتقام من ابي مسلم والكيد له ، اذا بأبي جعفر ينادي به خليفة المسلمين — بعد ان مات أبو العباس — فيصبح وفي يده كل وسائل الانتقام والكيد .

ثم يكتب أبو مسلم الى ابي جعفر يعزيه بأمير المؤمنين ، ويغفل تهنئته بالخلافة .

قالوا . « ولم يقم حتى يلحقه ولم يرجع »

فيزيد بذلك غضب أبي جعفر ، فيأمر بتقريعه في كتاب شديد اللهجة قاسي الأسلوب ، فيبعث اليه ابو مسلم يهنئه

ويريد ابوجعفر أن يعمل بالانتقام من أبي مسلم ، فيشير إليه أحد نصحائه البعيدي النظر بالتريث حتى يعد للانتقام عدته . ويحذره من الاشتباك مع ابي مسلم في الطريق — والناس جنده وهم له أطوع وله أهيب ، وليس مع ابي جعفر أحد »

فيرى صواب رأي هذا الناصح فيأخذ به .

قالوا . فكان يتأخر ويتقدم أبو مسلم .

(٢) تمادي ابي مسلم في عدائه .

« فأبلغ أبا أيوب أني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه .

إنه يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين فيقرأه ثم يلوي شدقه ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر فيقرأه ويضحكان استهزاء »

(مسلم بن المغيرة)

ولقد وجدت الوشايات مرتعاً خصيباً ، فقد حاول الواشون أن يتقربوا إلى هاتين القوتين بالتفرقة بينهما، وكان أبومسلم يعرف حق المعرفة منعة جانبه وعجز أبي جعفر عن الانتقام منه.

وكان أبو جعفر يسترخص كل غال ويذلل كل عقبة في سبيل الانتقام ، وكان يميل إلى سماع الاتهام، كما كان خصمه متوتر الأعصاب ثائر النفس متأهباً للانقضاض عليه ودك عرشه .

ولقد اعتز أبومسلم بقوته أيما اعتزاز ، فلم يكن يني عن عناد(أبي جعفر)ومكايدته فاذا بعث اليه (أبو جعفر) رسولا يسأله عما أصاب من الأموال — بعد ان هزم عبد الله بن علي ـ غضب ابومسلم وهم بقتل الرسول [١] ولم يتركه إلا بعد شفاعة واعتذار بأنه رسول لاذنب له .

فيزداد قلق أبي جعفر واصراره على قتل ابي مسلم .

---

(١) قالوا: وشتم أبا جعفر

قالوا . وخاف أن يمضي أبو مسلم إلى خراسان فتعظم قوته فكتب اليه كتابا يقول فيه : (قد وليتك مصر والشام ، فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام، فتكون بقرب أمير المؤمنين ، فأن أحب لقاءك أتيته من قريب)

وما كان أبو مسلم الذكي الفطن ليخفى عليه معنى هذا الكلام ، فغضب أشد الغضب حين قرأه ، وقال ·

« هو يوليني الشام ومصر — وخراسان لي »

قالوا. وأقبل ابومسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف ، وخرج من وجهه معارضا يريد خراسان .

(٣) بين أبي جعفر وأبي مسلم

ثم كتب أبو جعفر الى أبي مسلم في المصير اليه ، فكتب إليه ابو مسلم :

« كتاب أبي مسلم »

« أنه لم يبق لأمير المؤمنين — أكرمه الله — عدوّ إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان إن أخوف ما يخاف الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان أرضاك ذاك فانا كأحسن عبيدك ، فان أبيت إلا أن تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمتُ من عهدك ضنا بنفسي (١) »

كتاب أبي جعفر

قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانما راحتهم في انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم؟(١)

---

(١) ويقال ان ابا مسلم كتب إلى أبي جعفر :

« أما بعد فاني اتخذت رجلا اماما ودليلا على ما افترض الله على خلقه وكان في محلة العلم نازلا ، وفي قرابته من رسول الله (ص) قريباً ، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع الرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة ،

فأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التي اوجبت منك سماعٌ ولا طاعة.

وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك »

(٤) رسائل أبي جعفر

ولم يكتف ابو جعفر بما كان يبعث به من الكتب المنمقة إلى أبي مسلم وبما كانت تحويه من العبارات الخلابة والثناء المزيف ، فقد كانوا يكتبون اليه يعظمون أمره ويشكرون ما كان منه ويسألونه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة ويحذرونه عاقبة الغدر ويأمرونه بالرجوع الى أمير المؤمنين وأن يلتمس رضاه . نقول: لم يكتف ابو جعفر بذلك فكان يرسل دهاة الساسة عنده الى ابي مسلم يغررون به ويظهرون له اعجاب أبي جعفر بحزمه وشجاعته وتقديره لخدماته وبعد نظره .

فقد بعث باحد هذه الكتب مع أبي حميد المروروذي وقال له :

« كلم أبا مسلم بألين ما تكلم به أحدا ، ومنّه وأعلمه أني رافعه وصانع به مالم يصنعه به أحد — إن هو صلح وراجع ما أحب — فان أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : « لستُ للعباس وأنا برىء من محمد إن مضيت مشاقا ولم تأتني إن وكلت أمرك إلى أحد سواي وان لم آل طلبك وقتالك بنفسي ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لا قتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك. »

ولا تقولن له هذا الكلام حتى تأيس من رجوعه ولا تطمع منه في خير »

فيذهب أبو حميد في معشر من دهاة أصحابه وذوي الرأي والتأثير إلى أبي مسلم فيدفع اليه الكتاب ويقول له :

« إن الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين مالم يقله وخلاف ماعليه رأيه فيك

ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم ، ثم استنقذني الله بالتوبة ، فان يعف عني فقد ما عرف به ونسب اليه ، وإن يعاقبني فيما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد »

حسداً وبغيا يريدون إزالة النعمة وتغييرها ، فلا تفسد ما كان منك »

ولا يزال يضرب له على هذه الوتيرة ويبالغ له في التعظيم ، ثم يقول له :

« ياأبا مسلم ، إنك لم تزل أمين آل محمد ، يعرفك بذلك الناس ، وما ذخر الله لك من الأجر عنده في ذاك اعظم مما أنت فيه من دنياك ، فلا تحبط أجرك ، ولا يستهوينك الشيطان » فيقول له ابو مسلم : « متى كنت تكلمني بهذا الكلام ؟ »

فيقول له متظاهرا بالاخلاص له والحب :

« انك دعوتنا إلى هذا وإلى طاعة اهل بيت النبي (ص) بني العباس ، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك ، فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة، فجمعنا الله على طاعتهم والف بين قلوبنا بمحبتهم وأعزنا بنصرنا لهم ، ولم نلق منهم رجلاً إلا بما قذف الله قلوبنا حتى أتيناهم في بلادهم ببصائر نافذة وطاعة خالصة ، أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن نفسد أمرنا ونفرق كلمتنا ، وقد قلت لنا : من خالفكم فاقتلوه وإن خالفتكم فاقتلوني »

وهنا يقبل أبو مسلم على أحد أصفيائه فيقول له من غير أن ينخدع :—

« يا مالك ، أما تسمع ما يقول لي هذا ، ما هذا بكلامه يا مالك »

فيقول له صاحبه موافقا : « لا تسمع كلامه ولا يهولنك هذا منه ، فلعمري لقد صدقت ، ما هذا بكلامه ، ولما بعد هذا أشد منه فامض لأمرك ولا ترجع ، فوالله لئن أتيته ليقتلنك ، ولقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك أبدا »

ثم يأمرهم بالقيام فينفض المجلس ، ويرسل أبو مسلم إلى « نيزك » فيعرض عليه الأمر ، فيشير عليه أن يقيم بالري ولا يذهب إلى أبي جعفر ، ويقول له ، « فيصير ما بين خراسان والري لك وهم جندك ما يخالفك احد ، فان استقام لك استقمت له، وإن ابى كنت في جندك وكانت خراسان من ورائك ، ورأيت رأيك »

ثم يرسل أبو مسلم إلى أبي حميد رسول أبي جعفر ليبلغه رفضه نصيحته ، ويقول له أبومسلم : « ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن آتيه »

فيقول له أبو حميد مدهوشا : أعزمت على خلافه ؟ فيقول له أبو مسلم : « نعم»

فيقول له أبو حميد : « لا تفعل »

ويدور بينهما حوار يتمثل فيه دهاء أبي حميد ويقظة أبي مسلم ، فيلجأ أبو حميد الى اظهار عاقبة المخالفة وما ينتج عنها من النتائج الخطيرة ، فيبدو الوجوم على وجه أبي مسلم ، ويتردد في قراره ، ثم يصرف عنه ابا حميد

ولا يفوت أبا جعفر أن يتقرب الى انصار أبي مسلم واعوانه الأشداء بكل وسيلة فيبعث إلى «أبي داود» خليفة أبي مسلم بخراسان : « إن لك امرة خراسان ما بقيت» فيصبح بهذا الوعد من أشد انصار الخليفة المتحمسين لطاعته ، فيكتب إلى أبي مسلم :

« إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) فلا تخالفن امامك ولا ترجعن إلا باذنه » ويوافيه كتاب أبي داود وهو على هذه الحال من التردد والقلق فيزيده رعبا وهما . فيبعث إلى أبي حميد فيقول له :

«إني كنت معتزماً على المضي إلى خراسان ، ثم رأيت أن أوجه أبا اسحق الى أمير المؤمنين فيأتيني برأيه فانه ممن أثق به »

فاذا ذهب ابو اسحق — الذي يثق به ابو مسلم — الى الخليفة أبي جعفر تلقاه الخليفة بالبشر والترحيب وأجازه ورغبه بكل وسائل الترغيب ، وقال له : «اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان »

فيعود أبو اسحق ووجهه طافح بالبشر لما لقي من عطف الخليفة ولما ظفر به من جائزة ووعد ، فيقول لأبي مسلم :

« ما أنكرت شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك يرون لك مالا يرون لأنفسهم ، ثم يختم كلامه بنصحه أن يذهب إلى ابي جعفر فيعتذر اليه مما كان منه .

وهكذا تتضافر الظروف كلها على خلق جو من الرهبة ، والأمل في نفس أبي مسلم فيعتزم المضي إلى أبي جعفر ، وكأنما كان يصف ابن الرومي حاله حين قال :

تنازعني رغب ورهب كلاهما قوى ، واعياني اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة في رغيبة وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب

وكأنما كان يتنبأ بمصيره حين سأله نيزك ليثنيه عن الذهاب :

« قد اجمعت على الرجوع »

فقال له أبو مسلم : « نعم ، وتمثل :

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام !

فقال له نيزك : « احفظ عني واحدة ، إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع لمن شئت ، فان الناس لا يخالفونك »

(٥) أبو مسلم في طريقه إلى مصرعه

« نهاب أمورا ثم نركب هولها على عنت من صاغرين قماء »

« أبو العلاء »

وهكذا خدع أبو مسلم وهو الذكي الفطن ، ونسي عزمه على الخلاف ونسي أن احقاد الخلفاء وذوي السلطة لا سبيل إلى إزالتها إلا بقتل مثيرها . وكتب أبو مسلم إلى الخليفة أبي جعفر يخبره أنه منصرف إليه :

ألا يا قوم للعجب العجيب وللغفلات تعرض للأريب

ثم أعد أبو مسلم عدته للذهاب ، وسار في طريقه إلى الموت حتى وصل الي المدائن .

(٦) أبو جعفر يتأهب لقتل أبي مسلم

« والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه »

« أبو جعفر »

قال شاهد عيان (١) : « دخلت يوما علي أبي جعفر ـ وهو في خباء شعر ، جالس على مصلى بعد صلاة العصر وبين يديه كتاب ابي مسلم .

قال : فرمى به إلي فقرأته ، ثم قال : « والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه »

فقلت في نفسي : « إنا لله وانا اليه راجعون ، طلبت الكتابة حتى اذا بلغت غايتها فصرت كاتبا للخليفة وقع هذا بين الناس :

والله ما أرى انا إن قتل يرضى أصحابه بقتله ولا يدعون هذا حيا ولا أحدا ممن هو بسبيل منه »

قال : « وامتنع عني النوم ، ثم قلت : لعل الرجل يقدم وهو آمن ، فان كان

---

(١) هو أبو أيوب كاتب أبي جعفر

آمنا فعسى أن ينال ما يريد ، وان قدم وهو حذر لم يقدم عليه الا في شر ، فلو التمست حيلة » وقد تملك الخوف قلبه وخشي أن يخفق التدبير المحكم في قتل أبي مسلم ففكر في حيلة أخرى تضمن الفوز .

قال : فارسلت إلى سلمة بن سعيد فقلت له : « هل عندك شكر ؟ »

فقال : « نعم » ، فقلت : « إن وليتك ولاية تصيب منها مثل ما يصيب صاحب العراق تدخل معك حاتم بن أبي مسلم سليمان أخي ؟ »

قال : « نعم » فقلت — وأردت أن يطمع ولا ينكر — وتجعل له النصف ؟ »

قال : « نعم » قلت له إن « ككر » كالت عام أول كذا وكذا وكذا ، ومنها العام أضعاف ما كان عام أول ، فان دفعتها إليك أصبت ما تضيق به ذرعا »

قال : « فكيف لي بهذا المال ؟ »

قال : « تأتي أبا مسلم فتلقاه وتكلمه غداً وتسأله أن يجعل هذا فيما يرفع من حوائجه أن تتولاها أنت بما كالت في العام الأول فان أمير المؤمنين يريد أن يوليه — إذا قدم — ما وراء بابه ويستريح ويريح نفسه »

قال : « فكيف لي أن يأذن أمير المؤمنين في لقائه ؟ »

قلت : « أنا أستأذن لك »

ودخلت إلى ابي جعفر فحدثته الحديث كله ، فدعا سلمة وقال له :

« إن ابا أيوب استأذن لك ، أفتحب ان تلقى أبا مسلم ؟ »

قال: « نعم » قال : « فقد أذنت لك ، فاقرأه السلام وأعلمه بشوقنا إليه »

وهكذا احكمت المؤامرة من كل جهاتها وافتنوا في تدبيرها ما شاء لهم الحقد أن يفتنوا حتى أوقعوا أبا مسلم في حبالتهم وهو آمن من مكرهم .

ولم يكد يخرج سلمة فيقابل أبا مسلم حتى قال له :

« ان امير المؤمنين أحسن الناس فيك رأيا » ، ثم عرض عليه ما جاء فيه من أمر فانخدع ابو مسلم وطابت نفسه — بعد ان كانت كئيبة — ووعده خيراً .

قالوا : « ولم يزل مسروراً حتى قدم »

(٧) بين يدي المنصور

لو بعث المنصور نادى « آيا مدينة التسليم لا تسلمي
قد سكن القفر بنو هاشم وانتقل الملك الى الديلم
لو كنت ادري ان عقباهم كذاك لم أقتل أبا مسلم ! »

« أبو العلاء »

قال أبو أيوب : « فلما دنا أبو مسلم من المدائن آمر أمير المؤمنين الناس فتلقوه ، فلما كان عشية قدم ، دخلت على أمير المؤمنين — وهو في خباء على مصلّى —

فقلت : « هذا الرجل يدخل العشية فما تريد أن تصنع ؟ »

قال : «أريد أن أقتله حين أنظر اليه»

قلت : « انشدك الله انه يدخل معه الناس — وقد علموا ما صنع — فان دخل عليك ولم يخرج لم آمن البلاء ، ولكن اذا دخل عليك فأذن له أن ينصرف ، فاذا غدا عليك رأيت رأيك »

قال ابو أيوب : « وما أردت بذلك الا دفعه بها ، وما ذاك الا من خوفي علينا جميعاً من أصحاب أبي مسلم »

فدخل عليه أبو مسلم — من عشية — وقام قائما بين يديه ، فرحب به المنصور وتلطف معه ولم يبد له شيئا من النفور حتى لا يرتاب في نواياه .

وقال أبو جعفر : « انصرف ياعبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام فان للسفر قشفا ، ثم اغد علي . فانصرف أبو مسلم وانصرف الناس معه .

وقد ندم ابو جعفر على تضييع هذه الفرصة — بعد أن خرج أبو مسلم من عنده ونقم على ابي ايوب مشورته وقال له : « متى اقدر على مثل هذه الحال منه التي رأيته قائما على رجليه ولا أدري ما يحدث في ليلتي »

ولما جاءه ابو أيوب في اليوم التالي قال له أبو جعفر والغيظ يكاد يقتله :
« يا ابن اللخنا لامرحبا بك ، انت منعتني منه امس ، والله ما غمضت الليلة »

قال ابو ايوب : « ثم شتمني حتى خفت ان يأمر بقتلي »

(٨) اللقاء الاخير

« فقال عثمان قولة ضعيفة : أقتله »

ثم دنت الساعة الحرجة التي يفصل فيها التاريخ قوتين قاهرتين ، ويغلب احداهما على الاخرى ، فاما أن ينتصر أبو جعفر فيطيح برأس أبي مسلم واما يتغلب عليه ابومسلم فيطيح به وبخلافته ويغير وجه التاريخ .

ولقد كان اسم ابي مسلم وحده كافياً في ازعاج من يسمعه ، وكان أبو جعفر يعرف حقيقة ما يقدم عليه من أمر خطير يتوقف مجده على النجاح فيه ، ولم يكن أحد يجهل أن فشل المنصور في قتل أبي مسلم معناه الاشتباك معه في حرب طاحنة لا يعرف أي نتيجة تسفر عنها وان قتله ربما أثار عليه جنده فعاثوا في المدينة نهباً وقتلاً ثم لا يدري أحد عاقبة الامر . على ان من حسن حظ المنصور ان قواد أبي مسلم وأنصاره كان أكثرهم يخلص له خوفاً من بطشه وجبروته ، فلم يكد يقتله المنصور ويغريهم بالمال والوعود حتى انضموا اليه ونفضوا أيديهم من الاخذ بثأره ، بعد أن أمنوا غائلته وبطشه بهم .

وليس أدل على الخوف من أبي مسلم من تلك الدهشة التي كانت تستولي على كل شجاع جريء حين يطلب اليه أبو جعفر ان يفتك بأبي مسلم .

أنظر الى ابن نهيك يدعوه المنصور فيقول له : « كيف بلاء أمير المؤمنين عندك ؟ » فيجيبه متحمساً : « انما أنا عبدك ، والله لو أمرتني ان أتكىء على سيفي حتى يخرج من ظهري لفعلت »

فيقول له وهو في حماسته هذه : — « كيف أنت ان امرتك بقتل أبي مسلم » .

وهنا يرتاع عثمان بن نهيك ويبدو عليه الذعر من هول ما يطلب اليه الاقدام عليه ، وكأنما انقضت عليه صاعقة من السماء . أيقتل أبا مسلم الذي روع الدنيا ودوخ الممالك وقلب دولة وأقام مكانها أخرى ، وكان يهزم الجيش الجرار اسمه وحده ؟ هنا يبدو التردد والخوف . وتفتر الحماسة المتقدة فقد طلب اليه ما لم يكن يخطر على بال .

قالوا : « ووجم ساعة لا يتكلم » فقال له أبو أيوب : « مالك لا تتكلم ؟ » فلما أحرج ابن نهيك قال قولة ضعيفة : « أقتله » قال : « انطلق فجيء بأربعة من وجوه الحرس » فلما كان عند الرواق ناداه « يا عثمان يا عثمان » فرجع ، فقال له . « اجلس وأرسل الي من تثق من الحرس » وكأنما خشي المنصور أن يتردد ابن نهيك في عزمته ، اذا بعد تأثير شخصيته عليه فأمر ببقائه ، وأرسل في طلب أربعة أشداء .

ولقد كان الموقف غاية في الحرج ، فقد صار أبو مسلم مع المنصور في بلد واحد وأصبح أقل همس يصل إليه عن هذه المؤامرة كافياً لاحباطها وقلب التاريخ رأساً على عقب.

وقد كان من الطبيعي أن يتقرب أحد هؤلاء الى أبي مسلم فيفضي اليه بسر المؤامرة وينال الحظوة عنده ، فقد كانت الآمال معقودة به كذلك .

ولما أحكمت المؤامرة أمرهم الخليفة ان يكونوا خلف الرواق حتى إذا صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم . ثم بعث الخليفة الى أبي مسلم ، قالوا : « وأرسل اليه رسلا بعضهم على أثر بعض » فقالوا : « قد ركب »

قال أبو أيوب : « فقلت يا أمير المؤمنين ألا أخرج فأطوف في العسكر فأنظر مما يقول الناس ، هل ظن أحد ظناً أو تكلم أحد بشيء ؟ »

قال : « بلى » فخرجت ، وتلقاني أبو مسلم داخلا فتبسم ، وسلمت عليه ودخل فكان هذا آخر أيام أبي مسلم من الدنيا .

بين براثن الموت

« والعجب لأبي مسلم ، حطب لنار أكلته ، وقتل في طاعة ولاة قتلته ، وليس بأول من دأب لسواه وأغواه الطمع فيمن اغواه ، وانما سهر لأم دفر(١) وتبع سرابا في قفر ، فوجد ذنبه غير المغتفر عند صاحب الدولة أبي جعفر ، وكل ساع للفانية لابد له من الندم »

« رسالة الغفران »

ولما دخل عليه أبو مسلم قال له أبو جعفر : « أخبرني عن نصلين أصبتهما في متاع عبدالله بن علي ؟» قال : « هذا أحدهما الذي علي » قال : « أرنيه » فانتضاه ، فناوله فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه . وأقبل عليه يعاتبه ، فقال :

« أخبرني عن كتابك الى أبي العباس تنهاه عن الموات ، أردت ان تعلمنا الدين؟»

قال : « ظننت أخذه لا يحل ! فكتب الي ، فلما أتاني كتابه علمت ان أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم قال : « فأخبرني عن تقدمك إياي في الطريق »

قال : « كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس فتقدمتك التماس المرفق »

قال : « فقولك حين أتاك الخبر بموت العباس لمن أشار عليك ان تنصرف الي « نقدم فنرى من رأينا » ومضيت فلا أنت أقمت حتى نلحقك ولا أنت رجعت إلي»

---

(١) هي الدنيا والمعرى يكنيها بهذه الكنية لنقمته عليها ومعناها « أم نتن »

قال : « منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس وقلت تقدم الكوفة فليس عليه مني خلاف »

قال : « فجارية عبد الله بن علي ، أردت ان تتخذها ؟ »

قال : « لا ، ولكني خفت أن تضيع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها »

قال : « فراغمتك وخروجك إلى خراسان ، ؟ »

قال : « خفت أن يكون قد دخلك مني شيء ، فقلت آتي خراسان فأكتب اليك بعذري ، والى ذاك قد ذهب ما في نفسك علي »

قال : « تالله ما رأيت كاليوم قط ، والله ما زدتني إلا غضباً »

فقال له أبو مسلم : « ليس يقال هذا بعد بلائي وما كان مني ؟ »

فقال : « يا بن الخبيثة » والله لو كانت أمة أو امرأة مكانك لبلغت ما بلغت ، انما عملت ما عملت في دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا.

ألست الكاتب إلي تبدأ بنفسك ؟ والكاتب إلي تخطب آمنة بنت علي وتزعم أنك أبو مسلم بن سليط بن عبدالله ابن عباس ؟ لقد أرتقيت — لا أم لك — مرتقى صعباً»

وكان أبو جعفر يقول ذلك — ويده ترعد — فلما رأى أبو مسلم غضبه قال :

« يا أمير المؤمنين ، لا تدخل على نفسك هذا الغم من أجلي ، فان قدري أصغر مما بلغ منك هذا »

وأخذ أبو مسلم بيده يعركها ويقبلها ويعتذر اليه ، ولكن أبا جعفر أسرع وصفق بيده ، فخرج عثمان بن نهيك فضربه ضربة خفيفة بالسيف ، فلم يزد على ان قطع حمائل سيفه . فأومأ أبو مسلم الى رجل أبي جعفر يقبلها ويقول :

« أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، استبقني لاعدائك » فدفعه برجله وقال له :

« لا أبقاني الله إذن ، وأي عدو لي أعدي منك ؟ فضربه شبيب فقطع رجله .

فقال أبو مسلم : « واتعساه ، ألا قوة ألا مغيث »

وصاح المنصور : « اضربوه قطع الله ايديكم »(١)

فاعتوره القوم بالسيوف فقتلوه .

---

(١) ويقال انه قال وهم يضربونه : « العفو »

فقال له أبو جعفر : « يا ابن اللخناء ، العفو والسيوف قد اعتورتك »

وقال « اذبحوه » فذبح

فهرست



كتب للمؤلف

رسالة الغفران

« ثلاثة أجزاء في سفرين »

نظرات في تاريخ الادب الاندلسي

مجموعة محاضرات القاها المؤلف

في الجامعة المصرية

مختار القصص

مصارع الأعيان

مصارع الخلفاء

مختارات كامل كيلاني

مقالات شتى في التاريخ والأدب

ديوان ابن الرومي

صور جديدة من الأدب العربي

« نشرت تباعا بمجلة المقتطف »

مكتبة الاطفال

حكايات للاطفال

(١) — الدجاجة الصغيرة الحمراء — وحكايات أخرى

(٢) أم الشعر الذهبي — وحكايات أخرى

قصص للاطفال

(١) السندباد البحري

(٢) تاجر بغداد

قصص جديدة للأطفال

(١) بابا عبد الله والدرويش

(٢) أبو صير وأبو قير

(٣) على بابا

(٤) عبد الله البري وعبد الله البحري

(٥) الملك عجيب

(٦) خسرو شاه

يظهر قريبا للمؤلف

١ قصص فكاهية للاطفال

٢ قصص تهذيبية للاطفال

٣ الف باء للاطفال